ماريا القبطية

عنوان الكتاب: ماريا القبطية
الكات: أحمد إبراهيم أحمد
الطبعة الأولى: 1440هـ - 2020م
© جميع حقوق الطباعة والنشر الورقيّ والإلكترونيّ محفوظة
مركز ليفانت للدراسات الثقافيّة والنشر
ب ض: 03- 11- 520- 00408- 5- 022
س ت: 9882
44، شارع سوتير، أزاريطة، أمام كليّة حقوق الإسكندرية،
الدور الثالث، الإسكندرية، مصر
موبايل: 01030036491
هاتف: 034830903 - 002
بريد إلكتروني: levantegsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net
رقم الإيداع: 25922/ 2019م
الترقيم الدولي: 1 - 82 - 6651 -977 - 978
التدقيق والتنسيق والإخراج: القسم الفني في مركز ليفانت، بإشراف المؤلّف

ماريا القبطية

رواية

أحمد إبراهيم أحمد

فهرس

استهلال 7

اللقاء نصيب... 9

مفتتح 11

وجه خامس... الأمومة 26

وجه سادس... الرفاق 29

وجه سابع... تلك التي تعاني 35

وجه ثامن... المجدلية 38

وجه تاسع... العذراء 45

مجدلية وبتول 51

بدايات 53

الزوجة الذليلة 77

عائلة مسمومة 79

حلم لا ينفك يطاردني 85

الأم مدرسة... إذا أعددتها 89

أخوة يوسف 99

وما الحبّ إلّا للحبيب الأوليّ 103

القدر يقرع الأبواب 127

الخلاص من الأب الفرويدي 159

عن الكاتب 166

استهلال

مالي إذا سألت القلب عنك، تمتم في هدوء مستخفاً:
"تسأل عن هواها وهي فيك؟
هل جننت؟
أم أن جناً مسك، فلم تعد تدري عن نفسك شيئاً؟".

******

إليها...
من عاشت عذابها لا تبالي
وحملت صليبها فداءً لمن أحبت... فلذاتها.

اللقاء نصيب...

مفتتح

ربّته جدته وعرف منها أن له عم في الرضـاعة من بيت (القبط) وكان إذا حكى لها حلمه، وجاء في الحلم قبطي أو قبطية، طمأنته أن "النصراني في الحلم نصره."

كان دائم الذهاب عند عمه لمشـاهدة التليفزيون ولأنه يحب أن يرى (ماريا) بنت جيران العم التي تصـفها صـديقتها ابنة عمه بأنها "شـقية وعفريته ودمها عسـل." طفلة لاهية لا تعرف سوى الضحك، وتمثل مصدر سعادة وفرح لكل من يحيط بها أو يتواجد معها.

مرت السـنوات، تزوج وأنجب، وصـار أسـتاذاً جامعياً... اضـطربت حياته ثم استقرت حد الملل.

*****

صـف سـيارته كعادته في الموضـع المخصـص له في حرم الجامعة، وأطفأ المحرك ونزل من سـيارته، يسـير متهادياً بطوله المميز، وثيابه الأنيقة الذي يميزها الجاكت التويد فريد الطراز، وتزين فوديه شعيرات مسها الشيب، أضافت وقاراً لملامح وجهه الجاد؛ حين استوقفته طالبة مبتسمة وهو يتجه لمكتبه... واجهته بجرأة لم يعتدها بين من يعلمهم.

- دكتور أحمد... أنت مش فاكرني؟
- أنا أعرفك؟
- أنا ماريا.
- ماريا مين؟
- أنا اللي كنت ساكنة جار عمك عبده... مش فاكرني؟
- آاااااااااه... أهلاً... ماريا.

- شفت... أنا عرفتك وأنت ما عرفتنيش.
- معلهش يا ماريا... إزيك وإزاي بابا وماما؟
- بابا مات ربنا يقدس روحه.
- الله يرحمه... خليني أشوفك.
- أكيد... أنت أستاذي... بعد أذنك.
- مع السلامة وسلمي على ماما وأخواتك.
- سلام.

نظر إليها تمضي... غادة تسير كأنها تطير... بدت ملاكاً هبط من السماء ملأ الدنيا سلاماً وعطراً فجأة ثم غادر... لاحظ كشكولاً كبيراً سقط منها... التقطه وتوجه لمكتبه... فتح الأوراق يدفعه الفضول... انسابت الكلمات أمام عينيه فشحب وجهه وتلاحقت أنفاسه... هل هذه كلمات تلك البنت (المفعوصة) التي عرف في شبابه؟

*****

وجه أول... الموت

يكاد ينفجر قلبي من عبء السكوت الذي أنوء به... أريد أن أتكلم... أن أبوح... لكني عاجزة عن الجهر بما يثقل روحي.

ينتظر مني الكون كله أن أكون مثالاً للكمال وينسون أني بشر... أنا امرأة قبطية حياتها مليئة بالوجع والحب والخطية... ينكرون علي إنسـانيتي ويطالبونني أن أكون على قياس رؤاهم.

سيداتي سادتي لست ملاكاً حتى وإن بدوت لكم كذلك، ولست شيطاناً كما قد يتبدى لبعضكم... أنا إنسانة... مجرد إنسانة لا أكثر ولا أقل.

ها أنا ذا أعود لمقاعد الدراسـة... امرأة ناضـجة جميلة المظهر... قبيحة الروح بعدما تركَتْها حسناء شابة... أعود حاملة صليبي... أماً لطفل وطفلة... زوجة تعيش مهانة المرأة المصـرية كل صـباح... تنسـحب روحي وتزوي، فأتقوقع لأهرب من مشاعري، فيُصلب قلبي وأنا أبحث عن دموع تهرب وتتجمد في عيوني.

اشتهي الحياة وأحسها دماً يسري فيّ... لكن يترصدني الموت... أراه رأي العين يُطل عليّ قادماً يحتضنني... وأنا لا أريده.

أعشـق البحر والجلوس على شـاطئه يدثرني شـجني، أرنو للشـمس الغاربة، يسحرني غرقها في اللا متناه وأحلم بالشروق بديلاً.

انتظر آت لا يأتِ حتى يدفع بي انتظاري للجنون، وتصـرخ دقات قلبي الموجوع بالفقد وفزع الموت، ويسلمني حزن لحزن، وموت لموت، فأعيش نهباً لرياح الوحدة.

أسألك أيها الموت... لم لا تملْ من الصمت؟

لماذا أنا أيها الموت؟

لمَ أنت قاس في ذبح مشاعري وسرقة أحبتي؟

لماذا تأخذهم؟

باقية صـــورتك مجســـدة في ذاكرة طفولتي، تأخذ الأحبة في تابوت على عربة يقودها خيول أربعة مكســـو ظهرها بأغطية ســـود؛ مزينة بصـــلبان وزخارف مذهبة! يصاحبها عويل النساء وحين نسأل أين ذهب؟ تكون الإجابة:

"ذهب عند المسيح... هذا أفضل."

جئت شـــراً أيها الموت تغتال شـــعوري بالأمن، وتســـتبدله بالخوف... تقتلع أحبتي... تذيب المر في أوردتي ففقدت هيبتك أيها الموت يوم ســـرقت أحبتي فحولتني شبحاً مثلك... وصرت فقداً بفضلك... روحاً ضائعةً وألماً على قدمين.

فقدت قدرك عندي أيها الفقد، وصـــرت مثلك مواتاً، فتلاقينا على قدر لقاء وافتراق... أســـتحضـــرك جنياً يســـكن روحي كلما فقدت الأمان... لم أعد أخافك أيها الموت... لم تصبح فقط صديقاً لي... صرت أنا.

وجهٌ ثانٍ... البحرية

ألثم جبين الصباح كل شروق حتى يتصبب النور في قلب الروح مزلزلاً بدني، فتتورّد لحظاتي لأسير بلا طريق عرفه أحد قبلي، أتتبع آثار نفسي... مُشتعل داخلي كي ألقاك دون خجل من الاعتراف بعشقك.

أحلُم أن أتوه في صدرك العريض طفلة تدفن رأسها... تفرح... تركض باحثة عن الراحة، لتحتضنَ روحاً جعلتك مأوي ومهداً لأوجاعها لعلها تجد بين ثناياك سلاماً... يا ملجئي الأخير.

كلانا... أنت وأنا... موثق بالآخر... أنا مقيدة بمخاوفي لا أريد الابتعاد عنها... وأنت يقيدك الزمان، ويعجز المكان أن يحبسك.

تهرب المسافات مني وأنا أجمع ملامحي مُحملة بالهزيمة... محتفظة بخوفي وظلمة داخلي، فأتقوقع منزوية في نفسي هاربة مني، ليتصحر قلبي وينسحب داخلي لداخلي... فتصبح أعماقي رمالاً، وتتحجر دموعي، ويتحشرج الصوت حتى لا يعود لجرحي إيلام.

تخيفني لحظات الفرح كأنها الحزن، فآخذ نفساً عميقاً وأتأملك... تتلاحق أنفاسي مع أمواجك تائهة، يُداعب المجهول فيك المجهول فيّ، فأتأملك وارقب النوارس تشبهني... تلهو بين الماء والسماء، وأشعر بروحك كروحي تنوءان بعذاب لا يحتمل، فأرسم بأقدامي دوائر على رمال شاطئك تكبر وهي ترنو للأبدية وتزداد كبراً كدوامات تخرج مني حتى أغفو على الرمال.

ابتسم حين أُفيق، وأحس أني أريد الذوبان فيك وأنت تحملني بين ذراعيك وتلهو معي وبي، وحين أخرج لشاطئك وأنت لا تريد أن تفلتني تمسح عيني سطحك الفضة

وملؤها شـــجن يكفي الكون، يمســـح بحزنه وجع الأزمنة والأماكن، وأســـمعك تهمس في أذني:

"يندم من يهجر مخاوفه."

فتترك روحي المترعة بالحب هائمة تقاوم جســـدي... تصـــاحبها ملائكة بيض، تتراقص مع أمواجك، فتلتئم جروح الروح وأنت تُســـمعني همســـك، وأبثك نبض روحي مُعلقةً بين سماءك ومائك يا عشقي.

افتح ذراعي فاحتضن الكون... وحين يحملني حنانك بعيداً عن البشر... احتمي بك لا تقطع أفكاري مخاوفي، فارقص سابحة على صدرك الشبيه بعذاباتي فأسألك:

- من قادني لتلك الحال؟

فتقول لي مرتعشاً من نسمات الشمال:

- أنا... لكني الآن طفل مثلك... خائف أن أعود وحيداً.

فأطوي الخوف والحزن داخل محارة، أرســـلها لأعماقك لتســـتقر ســـاكنة، فتدوي ضـــحكتك الماء كصـــافرة مركب مُبحرٌ في بحر بلا غيم ولا أنواء، فأذكر طفولتي على شفاهك الشاطئية وأصيح:

- أيها البحر... هل يعجبك قدي؟ هل تذكر حين التفوا حولي ضـــباعاً... خلعوا ســـتري... فطرحتَ ثوباً من نور ســـترني عن كل العيون... وإذ التقيت بك احتضـــنتني يلونك القمر، تبث غرامك خمراً يتدفق في شـــرياني، ليســـتقبلك ثديّ اليقظان فتلقُمهُ لأتراقص على صـــفحة وجهك في لحظة عرســـي بك، وأعزف بالعشـــق أنغاماً للحب وصـــرخة غضـــب... لا تغيب أيها البحر فروحي تهيم للقاك... يا حبيباً عيناه بعمق الكون والحياة... أتوق لعناقك حتى يسري ماءك في عروقي ويشكل ملامحي... ابحث فيك عن روحي وعمر تنطوي سنواته في هياج مســـتعر، أبحث عنك لتأخذ روحي في أعماقك مُعيداً ليّ الطفولة، مُخرجاً من أعماقي نشوة أصبها في جسدك عرائس ملائكية... أتركني اتمتم هامسة حبيبي...

لا تذهب... تعالى أدفن رأسي بصدرك اشتم رائحتك، وأهرب من المجهول إليك... أواري دموعي وتزرع ابتسامتك في قلبي، وتحنو كفك على ظهري، وتلمس أناملك شعري، فيهرب المجهول، وتغفو العين، ويأتي سلام الروح... أطوي الخوف لاهثة بفرح لقاك، تحتويني ذراعاك... تحملني كطفلة... تهدهدني... اغتسل بمائك يُعيد لجسدي رعشاته، ويسري نبضك بداخلي فأرقص واضحك وأبكي... لكن تأبى الأيام، وتدفع برأسي تحت مياهك... فأغرق، وأوقن أن قلبي أضحى يتيماً... امتطي موجاتك لأذهب بعيداً عن شاطئك إلى مكان يصنعُ الأحلام, وتُولَدُ فيه الأساطير وحكايات الجنيات فأوقن أن قلبي أضحى يتيماً مرة أخرى حتى بعدما امتطيت موجاتك, وذهبت بعيداً في رحلةٍ تدوم العمر... أيها الماء القادم من البهاء... لستُ أدري كيف جئت؟ وكيف تمضي؟ لكني أسألك... لا تعاتبني... ولا تشهر سيفك الموج... كُن لروحي برداً وسلاماً وحماماً لا حُماماً، يستل قلبي من ضلوعي... لا تلمني إن أسهرت عينيك لليل فلقد أيقظتني أعواماً... احمني أيها البحر فسوف أحميك في قلبي ما استطاع هذا القلب أن يهزم الغرباء والزحام... آه يا وجهي الذي لم يجد الكف الذي يحنو، فوجده الذي يصفع.

وجه ثالث... الأب

ليس برجل من لا يشبهك... أنت وأنت وحدك الرجل... لا أستطيع سوى أن أحبك رغم كل شيء... لا أنسى أنك أخذتني لشوارع تشبهني ولا تشبهني... رأيت معك طرقاً ليست سعيدة ولا تعيسة، وزرنا أماكن كانت أسرارنا الصغيرة... ما زلت أذكر كيف سرنا معاً حيث تهطل قطرات مطر شحيح فوق أرض لا هي مبتلة بمطر ولا بدموع روحينا.

مضيت فجأة للبعيد دون أن تخبرني بسفرك، كنتَ وجوداً يعيش فيّ وأعيش فيه، فصرتَ نجماً مسافراً... نقطة نور تلاشت في الظلام... تركتني تأخذني أحلامي إليك جسداً يتمنى ضم رفاتك وروحاً تائهاً لا يملك إلا وجعاً وكلمات... وماذا تفعل الكلمات؟ غيبتني عن نفسي يوم غبت يا سيدي وصديقي.

أسقطك المرض بضربته القاضي يوم خدعوك، ونجحوا أن يشككوا في ضميرك، واتهموك بخيانة الأمانة، فبعت كل ما تملك كي تُبرئ ذمتك، وسقطتَ يؤلمك عجزك عن البوح أنك بريء حتى أكل السكر قدمك وأنت صامت لا تئن، ولا يعرف وجهك البسمة إلا حين أُطلُ عليك.

جعلتني ربة أسرة فجأة وبلا سابق إنذار وأنا استعد للامتحان بعدما سقطت مريضاً بلا حراك، تتحمل أوجاعك بلا تأفف ولا اعتراض، ولا تقدم لك أمي من الرعاية إلا الأقل، فصرتُ مسئولة عن رعايتك والاهتمام بك وخدمة أخوتي الذكور الذين لم يعتد واحد منهم أن يسقي نفسه شربة ماء.

استيقظ داخلي وجع أنثى تخدمُ أباً مريضاً، تُهمله زوجه، وترتب فوضى ولا مبالاة أخوة أفسدتهم الذكورة، لا يعوضني سوى تقديرك لدوري... عزاءً أعانني على

تحمل أن أكون خادمة بلا أجر، لينتهي يومي شبه مغيبة، أذهب لغرفتي أستريح قليلاً ثم أذاكر دروسي لأغفو مجهدة استعداداً لأعباء يوم جديد.

*****

أذكر جيداً تلك اللحظة الداكنة يوم نظرت مبتسماً، مُشيراً لي أن اقتربي، وحين اقتربت منك أمسكتَ يدي، وجذبتَ رأسي مُقبلاً جبيني لتهمس: "ربي يسترك يا بنتي دنيا وآخرة." ثم أغمضت عينيك قابضاً على كفي، فظننتك أخذك الوسن، وشعرت بيد أمي تحل يدي من يدك باكية مبتعدة بي وأنا أصرخ:

"فيه إيه؟ فيه إيه؟"

وحين صرخ أخي في وجهي:

"بابا مات."

لم أشعر إلا والطبيب يغرز إبرة المهدئ في ذراعي المشدود، لأغرق في بئر أحزاني العميق.

ماتت أشياء كثيرة بعدما غبت يا أبي... فقد الكون ألوانه، وخبت أنوار الحياة، وانطفأت روحي، وتوحش أخوتي، وشمتَ في الكون أن فقدت صديقي وحبيبي وسندي، وأصبحت أمي عدوة بلا سبب.

غبتَ فصرتُ افتقدك واقفة في عراء الحياة بلا حائط استند إليه أو يسندني إذ تجتمع كل هموم العالم والكآبة لتسودني.

افتقدك عارية الروح بعدما أسقط موتك والأيام أقنعة المرح... افتقدك طفلة... اغتسل من أدران يومي بين يديك.

افتقدك طيفاً... لا يكف يزور أحلامي.

افتقدك واحتاج إليك... استدعي روحك فتلبي.

صارت الدنيا بعد موتك سراباً وألماً، تسرقَ من الروح الفرح كما يختلس السراب ملامح الماء.

أين أنت يا سلام الروح والنفس؟

لم غبت؟

أين ذهبت؟

لماذا ركضت إلى موتك حين دنا؟

يا أبي وأخي وحبيبي وعمري...

أخبرني لم مت؟

*****

وجه رابع... الأم

أمي...

عشـــنا ســـوياً وتركتني حائرة في العراء ملء عيوني دهشـــة وخوف وموت... وضـعت الحزن في تجويف صـدري، فسـكن بين لحمي وعظامي، وهجرتني تائهة في الحياة تتمتمين بدعواتك الصـــالحات، ولم تقولي لي أن الحب عادة، والحرية عادة، والنسيان عادة، وأن الخوف ابن زنا لواقع تصنعه عبودية البشر للعادات.

*****

أمي... هل تسمعيني؟

لمَ أحسستني بالكره؟

أحببتك فأوحيت لي أنك تكرهيني وحين سـألتك عن ذلك كان ردك أن لا أم تكره نتاج بطنها... كنت الابنة المطيعة والخادمة الطيعة وأنا ابنتك الوحيدة، فهل غرتِ من علاقتي بأبي... زوجك؟

كم تمنيت لو كنت صـــديقتي... أبثك حزني وأحدثك عن أوجاعي، وأُســـعدك بأفراحي، وأتبادل معك أحاديث النسـوة، وأُخبرك بأسـراري الصـغيرة، وأسـتشـيرُك فيما يصعب على روحي وعقلي الصغيرين أن يستوعبا.

لم كنت دائماً شديدة القسوة عليّ لا تحتملين مني ضحكة ولا يهزك فرحي؟

لماذا... دوماً... عيونك الغاضـبة حاضـرة، تُذكرني أني سـجينة إرادتك، وحبيسـة أوامرك التي لم اتردد يوماً في إطاعتها رغبة في رضـــاك أحياناً وخوفاً منك في غالب الأحيان.

أردتك صـــديقة فواجهتني الســـجانة، وبحثت فيك عن الحب فوجدتُ الغضـــب، واحتجتُ أحضانكُ فلفظتني ضلوعك كما يلفظ بطنٌ طفلَ بغاء.

لم أفهم يوماً كيف عاشـرت أبي وكيف أحبك! هو بروحه المرحة المحبة للحياة، وعيونه الضـاحكة وأنت بصـرامتك ووجهك العابس كأنك خائفة أن تتشـقق ملامحك لو ابتسمت.

أكسبْتِني مخاوفاً صارت أشباحاً تسكن روحي كخيالٌ يلاحقني دوماً كظلي؟

أهو ظلي؟

هل قصدتِ أن افزع من ظلي؟

زرعتِ يا أمي –أنت والمجتمع– خيالاً مريضـاً في روحي، حاولت مقاومته لكنه سكن روحي بعدما سكن قلبي فصرتُ لست أنا.

غرستِ أنت يا أمي في روحي هذا التحدي الذي أسقطني... أكرر لك أني أحبك وأعلم جيداً أنك تحبيني؛ لكنك أخطأت الطريق لقلبي وعقلي، فتُهتِ... توهتني بين دروب أغلبها طرق ندامة.

تحملت مسئولياتك إرضاء لك وحباً في أبي وأخوتي ولم ترضِ!

تعذبتُ وضـاعت براءتي رغم أني لم أرتكب إثماً... جعلتني أعيش معك علاقة قاسية متوحشة؛ كادت تموت فيها روحي، كان خوفي منك سيداً فخفت منك ولم أخف أبي... تحاصريني وتصادرين على قلبي فلم أمنحه لأحد... علمتني أن أخاف الحب!

اسـتَلَبتِ حريتي حين فقدتِ حُريتكْ، وصـار الرعب في قلبي امتداداً للخوف في قلبك؛ لذا سأخوض حربي ضد الفزع لك ولي... سأحررك ونفسي... فأنت غير قادرة على خداعي، فمازلتُ قادرة على رؤية ابتسـامتك الواهنة الموافقة على كلام أقوله أو فعل أفعل دون أن تُبدين رضاك عني.

أعدك أني سـأحارب معركتنا وسـأنتصـر لك ولي... أوقن من ذلك وأعرفه من وجهك المستريح بعد أزمنة التعب والخوف... ترى هل أجرأ أن أواجهك بكلماتي تلك؟

الورق أكثر اسـتيعاباً والقلم أقدر على البوح... علمتِني أمي الصـمت والجبن، ونزعت عن روحي ثوب الشجاعة وتركتها نهباً للخوف والفزع عارية.

احتجت عمراً من عمري كي أتخلص من سـطوة الرعب الذي زرعته نظراتك الصارمة في روحي كلما اقتربت منك أو حتى حاولت.

هل تذكرين كيف كشف ابن أختك كهف نفسي المظلم يوم اغتصبني طفلة؟

هل تذكرين كيف حبستني أنتِ... أمي... في هذا الكهف حين اتهمتني بأني أنا المخطئة!

عشـت سـنيناً أتسـاءل عن هذا الذي يفرق بين الذكر والأنثى؛ لا يغادر عقلي صـورة قضـيب ابن أختك ينتفض قاذفاً بسـائله فوقي وأنا حبيسـة الخوف والدهشـة مما يفعله ابن أختك بنفسه وبي.

كبرتُ وكبرت معي أسـئلتي عن الرجل والمرأة، وأوجعتني تلك الأثداء التي نبتت مبكراً فوق صدري والتي أشعرتني بالنشوة في نفس الوقت، فكنت بحاجة قاتلة لك بينما أنت بعيدة تبحثين عن عالم آخر يُشبع توقك للحب ونسيتني.

خذيني أمي إذا ما صـرت رماداً... ضـمخيني بالدموع واصـنعي لقلبك ضـماداً، وتوسلي للعذراء في خشوع حتى يهون عليك فقدي.

هامش...

صدقوني واسمعوني جيداً وافهموا قولي... أنا أحب أمي وأعرف أنها تحبني وأي كلام أقوله عنها لا ينفي هذا الحب بل يؤكده... لا تستغربوا فحديثي لها حديث المحبين

وعتاب الأصـفياء... لا تسـيئوا بها أو بيّ الظن وتذكروا أننا بشـر ومن كان منكم بلا خطيئة فليرجمنا بكل ما تطال يداه من أحجار.

*****

وجه خامس... الأمومة

بدأت أكون أماً يوم أنجبت أمي شـــقيقي الصـــغير ماهر، وألقت به بين ذراعي ليصبح طفلي وأنا مراهقة لا أعرف شيئاً عن الأمومة... علمني هذا الماهر كيف اعتني بطفل، وأكون أماً مسئولة عن طعامه وشرابه ونظافته وحتى صحته.

تركته لي أمي حتى شـاركني فراشـي... حين مد يده الصـغيرة لثدي وهو نائم، ألقمته الحلمة فالتهمها بشراهة بعثت في جسدي بركاناً من النشوة.

تحقق وجودي يوم أصـبحت أماً... يتملكني شـعور رائع غريب وأنا أضـم طفلي لصـدري، يلتقم ثديي ليمتزج ألم شـفيف بمتعة لا تدانيها متعة... أصـبح ذات الشـعور يتكرر كلما مضـــي يوم أرى طفليّ ينموان حولي كزهور عبقة حتى كبرا وأصـــبحا مستقلين بقدر.

بدءا الدراسـة فصـرت انتظرهما كل يوم بشـوق يتجدد مع طرقات الباب المألوفة التي تعودت سـماعها عند عودتهما المتلهفة لدفء البيت وطعامه... لم يتغير شـعوري يومـاً عنـد فتح البـاب، ليتكرر قفز ابنتي ميريـت ومعـانقتي لتبقى معلقـة برقبتي وأنـا أتخلص منها برفق، واطلب من شقيقها مارك أن ينزل لشراء الخبز لتناول الغداء.

تذهب ابنتي لتبدل ثيابها، وأتوجه للمطبخ لأحمل الطعام إلى الطاولة واجلس على رأس المائدة مُسندة رأسي إلى كفي، استعيد عمري ككل يوم، وأشاهد صور حياتي تتوالى أمام ناظري، وأرى ابنتي تفتح الباب لأخيها الذي يضـــع الخبز على المائدة، ويجلس بثياب المدرسة، يتناول قطع البطاطس المقلية الساخنة، وأخته تنظر له منتظرة أن تتاح لها فرصـة الأكل، وحين يفاجئها صـمتي... تصـارع أخاها لتأخذ نصـيبها من الطعام.

هما ثروتي في حياة لا طعم ولا لون لها ولا رائحة مع زوج لم يكن له في حياتي إلا فضل زرع بذرتهما في رحمي.

أعود طفلة معهما... ألعب وأغني وأرقص، وأمارس عليهما سلطتي، فأشعر أن بي حياة، وأتنفس بهما وجودي حين أُحكم عليهما الأغطية نائمين كل مساء.

صنعا إرادة حياة حباً لهما؛ نقيضاً لرغبتي في الموت للخلاص... حرصاً على رعايتهما حتى ينبت لهما ريش، يطيران به في أفق حياة أرحب مما عشت... قاومت المرض وزوجي!

وتبدأ حياتي مرة أخرى كل صباح حين أوقظ مارك الذي يتمطى متكاسلاً بينما تفتح ميريت عينيها مُبتسمة، ثم يتحركان هو إلى الحمام بينما ترتب هي الفراشين حتى يصبح الحمام مُستعداً لاستقبالها.

اجلس على مائدة الإفطار أنظر لمارك يُدخل ساقه في البنطلون، ويقفز على الأخرى متجهاً نحو طاولة الإفطار ليتناول إفطاره بشراهته التي تضحكني كالعادة.

ما أن يبدأ صوت الطفلين يملأ المكان إلا ويقطعه سعال أبوهما يشعل سيجارته كريهة الرائحة، ويمضي نحو الحمام يدخنها وهو يقضي حاجته، ولا يخرج إلا بعد أن يكون الطفلين قد تناولا إفطارهما وغادرا في طريقهما للمدرسة، ليبدأ ويل جديد مع رجل هو العذاب نفسه، ولا ينتهي وجعي حتى يغادر، فأتنفس وأنا أُعد نفسي للذهاب لعملي بروح مجهضة وجسد منهك ملوث ببقايا رجل.

مارك وميريت عطية الرب... ملاكان يحميني وجودهما من شر زوجي وعدوانه... هما بركة سماوية تمنح حياتي رائحة الحياة، ومنحة القديسين لروحي حتى أتحمل عذابي وحلم نجاة على أمل خلاصي من خطايا حاصرتني دون أن يكون لي فيها ذنب... خلاصاً كخلاص يسوع المسيح وفداءُه على الصليب.

*****

وجه سادس... الرفاق

ما أن اكتشفت جسدي، وبهرتني استدارة ثدييَ واتساع حوضي وجاءتني نشوة الأحلام... رافقتني الوحدة، وصرت انعزل بغرفتي المغلقة.

اكتشفت عالم الود وصداقة لم اختبرها من قبل، نْمَتها في زميلتي عائشة التي اقتربت مني وتصادقنا حتى صرنا كياناً واحداً.

كانت لقاءاتنا في بيتها أو بيتنا متعة لا تعادلها متعة، وكان الذهاب لبيتها مسموحاً فأبيها يعمل موظفاً في الإدارة التي يرأسها أبي، فأصبحت صداقتنا عموداً منح حياتي التوازن، وأمدني بالقوة، وملأني بالحياة، وانتشلني من هاويات تهت وكدت أسقط فيها.

احتوتني عائشة من برد الوحدة، ودفعتني للوقوف والاستمرار في الحياة كلما أوقفتني مشاعر أمي الكريهة، وكانت دوماً موجودة كلما احتجت لدفء البشر إذا ما فقدت توازني وانتهي بي المطاف بلا سند.

أصبحت عائشة مكوناً أساسياً من حياتي، وكانت مصدر سعادة بلا حدود، فاعتدتها حد الإدمان، وصرنا نتقابل كل يوم إلا ما ندر، ونخرج معاً للنادي أو شاطئ البحر، فننطلق محلقتان في سماوات بهجة عرضها السماوات، لا يحدها حد وأنا مستسلمة لصداقة وود يدغدغ حواسي التي عرفت الضحك والانطلاق على يديها؛ ولأن لكل ما تم نقصان كانت النهاية من توقيعها كما خطت البداية.

أخذت تتهرب من لقائي فجأة ، وتبتعد عني في المدرسة، وتتحاشى لقائي، ولا تأتي لزيارتي، وإن ذهبت إليها تُنكر أمها وجودها وأرى في عينيها نظرة حزن تشي بكذبها.

كانت الســـنة الثالثة من الثانوية وأمامي امتحان يجب أن أُعد له رغم كآبتي، فانزويت أُقنع نفســـي أني قادرة على تحمل المزيد من الوحدة وأنها ماتت؛ لكن باءت محاولاتي بالفشـل، وسـيطرت عليّ فكرة واحدة... لا يمكنني أن أعيش دونها... بحثت عنها في ساحة المدرسة ذات يوم بائس وأنا أسأل نفسي:

"أموت أنا كل دقيقة متمنية أن تعود صـــداقتنا التي أقفَلَت بابها لتعيش لاهية... هل يُسـعدها أن أُكمل مسـيرتي مع أُخريات غيرها؟ أن أحس نحوهن بمحبة هي أعمق ما أحس به نحوها؟"

انتظرت طويلاً حتى حضرت... سألتها:

- كنتي فين كل الوقت اللي فات؟

نظرت لي نظرة باردة جمدت قلبي في صدري، وأجابت بهدوء:

- مع محمد.

أحسست ببرودها يخنقني، فسألتها:

- ما سبقش وسبنا بعض... اتغيرتي ليه؟

نظرت لي بثبات وبرود مبتسمة وقالت:

- ما اتغيرتش ولا حاجه... على فكرة... محمد شافنا سوا وغضب مني.

سألت مستغربة:

- يعني إيه؟

أجابت والتوتر باد على ملامحها:

- مش عايزني أعرفك.
- كده! أنتِ... أنتِ رأيك إيه؟

أجابت والتوتر يكتسح كلماتها:

- بيقول عليكي عضمة زرقا... أربعة ريشة... مش عايزني أعرف قبط.
- وأنتي ما كنتيش عارفة إن أنا قبطية؟

- أنت عارفة أنا ما يفرقش معايا... ها نفضل صحاب بس في السر... مش ها نتقابل زي الأول... زي ما قلت لك... محمد عايز يخطبني ومش عايزني أعرفك.

فقلت وأنا أُخفي حسرة وقد اشتعل كبريائي:

- روحي له... مش ها ينفعك وها تشوفي.

ذهبت وانكسر العالم... صار خاوياً ومعه نفسي التي اختزلتها في وجودنا معاً... اضطربت أفكاري، وأصبحت مليئة بالتساؤلات الحائرة، ولم أدرِ أهو انكسارٌ أم هي نفسي التي تنتحر ببطء؟ تُرى هل انتهى كل شيء حقاً؟ هل أُخذت صديقتي مني؟ لماذا تركتني؟ لأجل ماذا؟

قهرتني وحدتي ومواجهة الفراق مهما حاولت الهرب... وصوت صارخ بداخلي يقول:

"اختارت عائشة طريقاً غيرك... وجوداً غير وجودك... كوناً غير كونك وأنيساً غيرك... وجدت نصفاً آخراً."

توقفت أيامي تنتظرها حتى كاد عقلي أن يتوقف من رتابة الانتظار... ذهبت ذات مساء لمنزلها وعقلي يصرخ فيّ:

"هل تفعلين الصواب؟ ماذا لو رفضت مقابلتك؟ لماذا وضعت لصداقتكما حداً؟"

وقلبي يقرع داخلي وهو يؤكد لي "لا يمكنها أن تنساك." طرقت الباب، وبقيت مكاني متكئة على جدار أترقب وأنا اعلم أن كرامتي على المحك وأن ما افعله جنون وحماقة... كان موقفي مبهماً ومحيراً.

كدت أغادر بعد انتظار وإذا بالباب يُفتح ليُطل وجهها ينظر لي، فتجمدت في مكاني ولساني عاجز عن الكلام وصراخ داخلي يتفجر بمشاعري "أجل هي أنا... أنا من انتظرتك ولم تأتِ... ها أنا تنازلت وأتيت... فافعلي ما تشائين."

ابتسمت واقتربت وعانقتني... لم أصدق وهي ما تزال تعانقني... تساءلت:

"ما معنى هذا؟ أيجب أن افتح ذراعي؟"

أخذتني من يدي لنجلس سوياً على حافة درج طالما جلسنا فوقه، وكان صمتاً ابلغ من الكلام... الأجل هذا الصمت آتيتِ؟

لم أرغب أن أُظهر لها أني أتيت لسبب غير وجيه وقبل أن أقول أية كلمة سحبتني من ذراعي، ولم أصدق ما يجري... أنا برفقة عائشة معاً... فكرت أن أعاتبها لكني خفت اغتيال لحظة جميلة فقررت تأجيل اللوم... لكنها تركتني وأنهت كل شيء فجأة... في غمضة عين... قتلتني ثانية وأنا التي تنازلت وأتيت لها.

– ماريا... خلاص أنا اتخطبت لمحمد وما بقاش ينفع نتقابل زي الأول... سبق وقلت لك محمد مش عايزني أعرف قبط.

انهمرت دموعي دون أن اصدق أن صديقة عمري بهذه القسوة... هل تظنني جماداً بلا روح؟

طعنةٌ مُرةٌ بسكين ثلم... ألم يكن من الأفضل لو بقيت في ذاك الانتظار البليد أهون من هذا التنازل المهين؟

دفعتُ ثمن سذاجتي، وغادرت المكان منكسرة والسماء تُمطر حجارة، فلم أر غير ضباباً أسود... تمنيت أن أصرخ لأُخرج الغضب الذي يملأ صدري، وأصبحت امقت تذكر وجهها، وانزويت في غرفتي استمع لأغان حزينة.

*****

يبدو أن الصديقات لم يكن في حياتي سوى ساحرات خرجن من ثنايا حكايات وهمية، وجئن لعالمي يردن التهام سعادتي... حتى القريبات لم انج منهن.

تربينا معاً... كارولين ابنة عمي وأنا... كان أبي يرعى أبيها لأنه رقيق الحال، فكان يعطيه راتباً شهرياً دون أن تعلم أمي، وكانت كارولين شبه مقيمة ببيتنا... تأكل مما نأكل، وتشرب مما نشرب، وتلبس كما ألبس، وتتركني دائماً اختار لها الثياب على ذوقي لأني كما كانت تقول "ذوقك حلو وشيك."

كنا ندرس في نفس المدرسة في كل المراحل الدراسية، وافترقت بنا الدراسة في المرحلة الجامعية وإن ظلت شبه مقيمة معي ولم أحس بالفرق.

عشـنا كأختين متعايشـتين، ولم نكن صـديقتين حتى ظن كثير من الناس أننا بالفعل شـقيقتين، وكانت حياتنا سـوياً عادية رغم أنها لم تقترب من روحي، ولم أُطلعها يوماً على أسراري الصغيرة ولم تفعل.

لم تكن رقماً مؤثراً في حياتي بل كانت وجوداً عادياً ككل الموجودات التي تحيط بي وحتى بعدما تزوجت كان ترددها على بيتي من الأمور العادية، وذهابنا للكنيسـة كل أسـبوع من روتين الحياة المعتاد حيث نمارس حياة اجتماعية مباركة في أحضـان بيت الرب حتى كان يوم لفتت نظري صـديقة لي أن انتبه لزوجي وابنة عمي... لم أصـدق في البداية... حتى تكررت من أمي الكلمات التي حذرتني بها صديقتي عن شيء غير طبيعي بين زوجي وابنة عمي!

لم يكن صعباً علي أن أطلب من ابنة عمي ألا أراها، وألا تعرفني، ولكن كانت المواجهة بيني وبين زوجي مرارة أخرى لم أنل من وراءها سوى الصفع واللكم ومزيد من الإهانة وانكسار القلب.

وجه سابع... تلك التي تعاني

أشعر بك يا أبي لأني خضت تجربة الموت أكثر من مرة... لا تستغرب... حين تهاجمني نوبة المرض، فأدخل في غيبوبة يتوقف فيها قلبي عن الخفقان... أفرح... لأني أعرف أني سألقاك وأتحدث إليك.

ليس الموت كريهاً كما يصـــوره الآخرون... الكريه هو المرض ومعاناة الألم... أنا أكره المرض وأرفض الاعتراف أني مريضـة... لا عقلي ولا ممارسـاتي اليومية تريد الاعتراف بإصابتي بمتلازمة الألم الموضعية المركبة والمسماة علمياً Complex regional pain syndrome فهي ما أعاني منه وهي نوعان... الأسـهل هو الأول الأكثر شـيوعاً وأنا مصابة به وسعيدة لأن النوع الثاني أشد قسوة.

حالتي حالة مرضـــية نادرة ومعقدة، تظهر بادئ ذي بدء في الأطراف، يُميزها شـعور موجع لأشـياء غير مؤلمة كاللمس العادي عند كل البشـر، ثم يتغير لون وحرارة جلد الطرف المصاب.

بدأت إصابتي في مرحلتها الحادة بألم حارق، وأصبح كفي الأيسر وقدمي اليمنى باردين زرقاوين، وغمرني عرق غزير، وأخذ شـعري يتسـاقط وعرفت أني مهددة بتشـوه أطرافي.

صـرت أعاني... مجهدةً بين العلاج الطبيعي الذي يشـمل تمارين قاسية، وتدليك وتســخين للعضــلات؛ إضــافة للأدوية المســكنة، والمهدئات العصــبية، ومضــادات الاكتئاب، وموسـعات الأوعية الدموية، ومرخيات العضـلات، ولا يخلو الأمر أحياناً من منوم لتخفيف الألم، وتأكدت أني قد احتاج في المستقبل لجراحة تجريبية من أخصـائي أو استشاري لعلاج الألم!

اعتدت المرض الذي اعتادني، وصـرنا رفيقين لذلك لا تأخذكم بي شـفقة... فقط أضـــاف المرض لأوجاعي من الحياة وجعاً جديداً نشـــأ مني وعاش معي كابن حملته، وولدته، وأرضعته، وكبر معي.

كنت دوماً معي يا أبي الغالي في مرضـــي حتى بعد أن غادرت... ســـاعدني مرضك وخدمتي لك على تقبل علتي واستيعابها... أستحضر بسمتك الهادئة دائماً في أحلك أوقات الألم، فتنزل على روحي سكينة وصفاءً، ويصبح الألم تجربة روح وتعزية من المخلص يسوع ووعد بالخلاص.

تسـتبدّ بي الدهشـة مع ألم المرض، وتغتال ما نضـج مني وتعيد حياتي سـيرتها الأولى، فأتمرد على الوجع، وأحلم بالتخلص من عذابي واثقة أن رحمة الرب لن تنساني فتنبض المشـاعر التي اسـتكانت للسـقم، وينتفض القلب كعصـفور بلله المطر، يعزف لحناً رقيقةً أنغامه كعزف كمان عاشـــق حزين في ليل خاو من البشـــر والمشـــاعر... تتهادى نغماته كفراشات مضيئة ثم تثور كبركان أفاق.

أشـــعر بالمرض يطاردني ويحيط بي إحاطة ســـوار لمعصـــم، يضـــحك مني ويســـخر... يأخذني ويقذف بي بلا رحمة في بئر هلع ورهبة... خوفٌ موروثٌ من ذنوب لم اقترفها... أخاف مشاعري تلك التي تثور ثم تهدأ فتسكن لتغمرني بفيض نور وسكينة... روح لا أعرف حقيقية هي أم وهم يريحني؟

كان مرضـــك يا أبي وقبولك به هادياً لي ومعاوناً مرشـــداً في دروب مرضـــي القاسـي، فتحملته لا أدعي شـجاعة حتى أن زوجي وأبنائي وحماتي وجيراني اعتبروه لا شـــيء رغم ما يرونه من عذابي حين تهاجمني النوبة فأصـــبح بلا حول ولا قوة... أود الصراخ فأعجز عنه.

ليس من راحة ســـواك يا أبي حين يهاجمني المرض... تأتي في أحلامي التي يطلق أســـرها المهدئ، فتمُد لي يدك الحانية، ويتســـع الوجود حين يحتويني صـــدرك الواسع العطوف، وتحيطني يد الرحمة حين يضمني ساعداك، ويذوب الألم مختفياً في ابتسامتك الصافية وأنت تسير بي في جنتنا؛ حيث تتسلق بيتنا... القصر... زهور ست الحسن التي زرعتها من أجلي... مغطية كل شيء بلونها الصافي وبهاء لا نظير له... تأخذني عابراً بوابة المنزل لباحته الداخلية بحوائطها المليئة بالنوافذ الكبيرة وزجاجها الملون؛ تملأه صور المسيح وأمه العذراء وعشرات القديسين الذين يحلو لك أن تحكي قصصهم ويدك تمسك يدي.

يملأني سكون الروح، ويسكنني صفاء سماء ربيعية حنون، فيضيع الألم في أمل لقاك، ويصـــبح الوجع نعمة من الرب أن جاء بك إلي، فأتمنى أن أمشـــي من دنياي للقاك حيث أنت، ولا يردني سوى يقظة، يشعلها الألم يحرق بدني.

لو كنت أبي حياً لوهبتني عُمراً، وفعلت المســتحيل كي تُفرح قلبي المتكســر... لكني ها أنا ذا يأخذني شيطان النوم لأنام بلا إرادة، وأفقد قدراتي في نوم شرود يتخطف روحي من روحي... منك.

لكن بعثتك رحمة الرب تتخفى في عباءة الليل الســـوداء... تتخبط في غياهب ظلمة النوم بعد أن فقدت قدمك التي ســـرقها الســـكر والحزن، تبحث عني أنا الذي خطفني النعاس بخدر شـل جسـدي حتى اسـتدلت خطاك لمكاني، لتضـع يدك الحانية على جبيني، وتتمتم بصلاتك ثم تهز رأسك باطمئنان وتقول:

"أنتِ بخير، ولا يُخشـى عليك وحين تسـتيقظين أعرفي أني معك دوماً، وتذكري أن أباك كان هنا."

أنا لســـت خائفة ولا خاطئة... لم أعبُر وادي الظلال، ولم أرتكب يوماً خطية اسـتحق عليها هذا العذاب إلا إن كانت الأحلام خطيئة تسـتحق عقاباً... لكن حتى لو كانت الهواجس تستحق تأديباً فليس بقسوة هذا المرض... تعبت يا أبي تعبت.

لم مت؟

لم غادرت؟

لمن تركتني؟

*****

وجه ثامن... المجدلية

أكره النهار وأعشق الليل فالنهار يجامل بينما الليل صادق ينزع عنك ظِلالك... أبكي بلا سبب وأعيش في مجتمع وسخ وأنا امرأة وسخة لأني من هذا المجتمع.

نعم... بداخلي عاهرة صنعتموها يا أبناء القحاب... كلكم بلا استثناء... أبي وأخوتي وزوجي وأمي وخالاتي وعماتي وأساتذتي وجيراني وكل الماضين رائحين غادين في الطرقات أقول لكم... أنتم أبناء قحاب.

طاردتني الخيانة دون أن أدري ما هي!

أهي خيانة البدن أم الروح والعقل؟

أيخون الآباء والأمهات والأخوة؟

طاردتني الخيانة وسرقت أفراحي، وأفقدتني الأمان، وأشعرتني بقاهر شرس، يُذكرني أني خُلقتُ أمَة لإشباع شهوات آخر، يُفترض أن يُكملني... فخانني.

أيتها الخيانة التي تشدني للوراء، فتشلني عاجزة أمام من يريدون جسدي وروحي غنيمة... نعم رافقتني... لكن لن أمكنك من روحي ما دام في نفس؛ رغم آلام وإجهاد السفر في أزمنة الوجع... آاااااااااااه كم هو مر شراب بئرك أيها الوجع!

لم ولن أنسى وحشية أمي حين أخبرتها بما فعله ابن أختها وهو يحاول اغتصابي، واتهامها لي أنني السبب فيما فعل، وصدمتي أن تتهم الضحية وليس القاتل!

افترقنا أمي وأنا منذ تلك اللحظة وغرقت مشاعري في بحور تفجرت بينها وبيني، ولم استوعب تلك الجلسات بينها وأبي التي يتوقف فيها الحديث بمجرد مروري لكني أحسست بخطر موشك يهدد روحي... أقنعت أمي أبي بتزويجي بحجة حمايتي، ولا

أدري أكان ذلك للتخلص من عبء البنت العورة؛ أم للاستفادة من العريس المنتظر! لم يخطر ببالي قط أن يخونوني وأكون سلعة في صفقة من صفقاتهم.

نزل قرار تزويجي صـــاعقة فوق رأســـي، ووجدتني ارتدي ثوباً لم اختره، وأحمل قطع حلويات وأكواب مرطبات وأُعرض جارية... بلهاء تتحرك جسداً بلا روح وعيون لا تميز بين الضيوف، يستهلكني إحساس غامر أن...

"ليس هذا عالمي... هذا سوق نخاسه خائن، حوصرتُ فيه ولا مهرب."

دُبر الأمر بليل وجرت الإجراءات بسرعة فائقة، ووجدت نفسي مع من لا أعرفه رُبط مصيري بمصيره دون إرادتي، وخانني الزوج المنتظر قبلما يصير زوجي!

خرجت معه واختار مكاناً معروفاً نستريح فيه... لاحظت حين جلسنا أنه يطيل النظر ورائي ثم نهض فجأة، وبقيت انتظر... مرت ساعة... ساعتان ولم يعد... أشرت لأحد العاملين الكبار سناً فاقترب مني فسألته عن (الرجل) الذي كان معي فرد أنه خرج مع سيدة كانت تجلس ورائي من حوالي الساعتين... صُعقت!

تمالكت نفسي وسألته عن الشيك وحين أخبرني، غُص حلقي فلم أكن أحمل ما يكفي من المال... شرحت له الموقف وأخبرته من يكون أبي فعرفه، وأحضر تاكسي يوصلني لبيتي.

أخذت من البقال أسفل بيتنا أجرة التاكسي، وصعدت وطرقت بابنا بعنف وحين فتحته أمي دخلت كعاصفة هوجاء، وارتميت على سريري وانفجرت بكاءً... جاءت أمي تســـألني فحكيت لها غاضـــبة وهي تنظر بعيون زجاجية، وطلبت أن أكف عن عبث الأطفال مبررة أن لما حدث سبب منطقي بالتأكيد...سنعرفه.

كان تركي بهذا الشكل إهانة أغرقتني في إحساس خزي استفز مشاعري، وطعنني تقبل أمي لما حدث بهذا الفتور القاتل، وشـــعرت أنها باعتني بثمن بخس، ولم أعرف حتى الآن كيف برر ما فعله لأبي وأمي لكنه واجهني ببرود يذبح!

لم أتخيل يوماً أن يخونني أبي وأمي! لكنهم خانوني! فخانتني الحياة ودفعتني أن أخلع ريش الحمامة وارتدي جلد النمرة... أيتها الخيانة لم أعد أخافك.

قررت أن أعيش حياتي كما يعرف البحر قصص كل السفن الغارقة... أن اعرف كل شيء ولا اترك فرصة لكشف المستور إلا كشفته... تزوجت وعيوني مفتوحة لاكتشف أن معي عاهر داعر متهافت على القحاب، يتوق لهن كما تتوق أرواح التائهين للسراب، ويريدني أمة في جيش سراري يتسرى بهن.

نجح زوجي أن يصنع مني عاهرة حين عرف كيف يستغل غريزتي ويخضعني لها... كان خبيراً بالنساء وعازف ماهر يعرف كيف يتلاعب بأوتار أنثى فكنت انصاع له في الفراش دون إخفاء توهجي بين ذراعيه وتحت وطأةِ وطأْه.

أذلني ضعفي وعرفَهُ، فلم يتورع عن سبي بأقذع الشتائم وإن قمت بالاحتجاج توقع بي يده وما طالت أشد الأذى.

قررت أن أصنع قوتي وأن أضع سطوته وتسلطه تحت قدمي... كنت بحاجة لدليل قوي يتيح لي أن أكون سيدة وصاحبة قرار فكنيستنا لا تبيح الطلاق إلا لعلة الزنا، وليس من السهل إثباته، فلم يكن أمامي سوى الصبر... صبرت حتى أوقعه القدر بين يدي لقمة سائغة.

كنت أجهز ثيابه للغسيل فلاحظت أوراقاً مطوية بعناية في أحد جيوبه... اعتقدت بداية أنها تخص عمله ففتحتها فهالني ما بها... كلها مكتوب بخطه الذي يستحيل أن أخطئ التعرف عليه... ركضت عينيا وراء الكلمات تكادان تقفزان من مكانهما... كلمات اعرفها جيداً يرددها لحظات يمتطيني، فيطحن عظامي ناثراً ألفاظاً ليست من قاموس عرفته... تثيرني رغماً عني، وتوقظ في بدني مشاعر وحشية.

أطبقت الأوراق بعناية وخبأتها حيث لا يمكنه الوصول إليها... بحث حين عاد عن ثيابه بلهفة وحين لم يجدها سأل، فرددت ببرود أنها في الغسالة فقال أن بها أوراق هامة فابتسمت...

- شفتها.
- هي فين؟
- شايلاها.
- ها تيها.
- بعينك.
- قريتيها؟
- طبعاً.

صمت وطأطأ رأسه في خزي أشعرني بقوة هائلة فتنمرت...

- الأوراق دي صـك حريتي... لو ما مشـتش زي الجزمة... من بكره ها يكون الورق في الكنيسة.
- بس...
- ما بسش يا وسخ يا نجس... من دلوقتي أنا ستك وتاج راسك واللي اقوله ها يمشي.
- أنت بتأمريني وبتشتميني؟
- أشتمك واشتم اللي خلفوك، وأنا اللي أأمر وأنت اللي تنفذ... فاهم.

حاول أن يرفع يده ليضـربني كما اعتاد كلما غضـب، فلم أهرب منه كما تعود، وثبتُ في مكاني كصـخرة، ونظرتُ في عينيه نظرة جمدت الدم في عروقه، وعلقت ذراعه في فضاء الغرفة... بصقت في وجهه وغادرت بهدوء... لم اعتقد أني أملك هذه القوة... أدهشني ما فعلت وأسكرني الرضا عن نفسي.

تملكني التسيد وعششت شهوتي في جسدي، وكان عبداً أخذت قياده، واستخدمته آلة لإشباع رغباتي التي ازدادت توهجاً، لأعيش معه لحظات شبق وكراهية في آن... أشرب المرارة ممزوجة بشهد.

انطلق داخلي شـــيطان مريد لا يمل من التســـيد والتحكم، فكنت أمنحه نفســـي برغبتي وأعاقبه بالامتناع حين أريد... تمنيت لو تطلقنا وكنت أســـتطيع لكن كبلتني أمومتي وقيود المجتمع والكنيسة... والتعود.

كم هو غريب هذا التعود... نعتاد معذبينا حتى يحتلون أرواحنا ونكاد نســـكن فيهم... أهي متلازمة ستوكهولم تأخُذُ شكلاً جديداً؟

تفجرت داخلي طاقة رهيبة أن أُعاقب كل من خانني، فأقمت علاقات خارج الزواج امتنع أثناءها عن معاشـــرة زوجي حتى يكاد يجن وأنا اشـــبع رغباتي واســـتمتع بوصـف نفسـي بالعاهرة، واسـتحضـره هو وأمي أثناء ممارسـة علاقاتي ليصـرخ داخلي فيهم منتشياً:

"تعالوا لتبصـــروا الداعرة التي صـــنعتم بخياناتكم... شـــاهدوني أنا الفاجرة اسـفح شرفكم... شاركوا أيها المتغطرسون في دفع الثمن."

فيزداد جنوني ويصـرخ الشـبق مشـتعلاً داخلي يطلب المزيد، لأعود لبيتي مجهدة ملطخة أتحاشـــاه، وأرفض أن يمســـني وهو يكاد يجن، يبحث عن ســـبب هيهات له أن يعرفه، وما أن أتعافى من نوبة الشـبق المجنون واهدأ، أعود لمضـاجعته فيشـحن آذاني بوســـــاخاته التي تعيد إنتاج العاهرة داخلي فأهجره، وأعود لأدخل دائرة الفحش، وأدور فيها حتى ينهكني الدوران، فاســـقط ثانية في هوة ذل اقهر به ذاتي، ولم أعرف طعم الخيانة الحقيقية إلا يوم أحببت طبيبي.

*****

كان طبيبي وأدرك أن خللاً بحياتي فاقترب بهدوء وبطء وتسـلل لروحي فوجدتني واقعة في عشقه.

لما دعاني للخروج لم أمانع، وحين احتوتنا القاعة الصـــــغيرة في محل شـــــهير عريت روحي أمامه بلا خجل، وحكيت مرارات حياتي ولما احتضـــــن يديّ تركتهما له كما لو أن له الحق، وحين قبل باطن يدي أعطيته أذن امتلاكي دون طلب.

اعتدنا أن نتقابل في نفس المكان وأنا انتظر أن يدعوني لبيته، وحين فعل كدت أطير من الفرح ولم أخفِ رضـــاي بدعوته... ذبت بين يديه كشــمس ألهبت قطعة زبد حين حاول تقبيلي، وارتميت على سريره حين افلتني مهيأة له نفسي ... كنت زليخه ولم يكن يوسف.

أطلقت العنان لكل شـــهواتي معه وشـــاركته كل رغباتي المكبوتة... حين طلب مني أن أضـع عسلاً على قدمي ليلحسه... غمرت جسدي كله، وتركته يلعقه وأنا أكاد أغيب عن الوعي نشــوة... أحببته حتى كنت أخلط بينه وبين زوجي حين يضـــاجعني وتستبد بي النشوة حتى فاض كيله وواجهني...

- مين الدكتور ده يا شرموطه؟

نظرت في عينيه بوقاحة ورددت...

- أنت.
- أنا اسمي ماجد... أنت اتهبلتي؟
- بدلعك... مش عايز؟ بلاش.

سكت وعيونه تبرق بنشوة امتلاكي وشك لا يدري كيف يبرأ منه... لا يعرف من يسـود داخله؟ وأنا منتشـية بعذابه الخفي وإحسـاسـي أني امتلكت مفاتيح روحه وأتقنت قراءة داخله... صرت لبؤة شرسة حتى اكتشفت أن شراستي لم تكن إلا على نفسي.

*****

وجه تاسع... العذراء

عشــقاً في الســيدة العذراء ســماني أبي ماريا، ونســى أن مجدلية تختبئ وراء الاسم... فعشتُ بداخلي عذراء ومجدلية... وكلتاهما تنتصر... تحملان وجعهما صليباً تمضيان به... وها أنا ماريا السكندرية كُتب علي أن أحمل صليبي وأمضي بينهما.

أنا لا أحب الكذب رغم أني أُتقنه... أحب اللعب بالمشــاعر وتســعدني ملامح الوجوه المصــدومة من حكاياتي المغرقة في الغرابة أو الوقاحة... اســتمتع بردود الفعل على الآخرين، وتدهشني دهشة طفولية حين استخدم لغة جريئة (وأحياناً ألفاظاً خارجة) لا ينتظرون من امرأة أو فتاة أن تستخدمها.

عذبتني حياتي بفقد الحنان ثم الحب... حرمتني أمي حنانها ثم غادر الحب كله يوم فارق أبي الحياة... أحســســت أن الحياة تعبث بي فقررت أن ألهو فيها وبها... واحدة بواحدة.

خانني الحب يوم أحببت زميلي في أولى سنوات الجامعة... طلب مني أن أهرب ونتزوج لأنه لا يســتطيع أن يترك دينه، وكنت لا أســتطيع أن اقتل أبي فرفضــت، وافترقنا.

كـان حبي الأول والأخير وبعـده أغلق قلبي بـابـه أمـام الطـارقين حتى زوجي اضطررت لقبوله ومعاشرته ولم أحبه.

تمنيت لو قدرت على الخيانة... حملتني أمواج أحلامي إلى شــطآن أمنياتي... حلمت وأنا نائمة ومســتيقظة بإذلال أمي وزوجي وأنا أضــاجع عشــاقاً وهميين، واستدعيهما ليريا بأعينهما العاهرة تلطخ ما يسمونه شرفهم... فانتشي.

كانت حكاياتي عن فحولة زوجي وقدرته على إشــباعي جاهزة حين يتطاول أحدهم بالحديث عن فحولته أو تتباهى زميلة أو صــديقة بفحولة رجلها لتحبطهم بينما

أكاد أتقيأ كلما لمســني، وأشــعر بعنتي وعنته في علاقة خالية من الروح حتى أني لا أصــدق كيف أنجبت منه طفلاً وطفلة، ولو لم أكن واثقة من أني لم يمســسـني بشــر لصدقت أنهما ليسا ابنيه.

ضــحيت بالجامعة، وارتضــيت عملاً لا ارتضــيه لنفســي وأقل مما تمنيت حتى يكون لي دور في إعالة أسرتي، وحين زاد العبء وأصبحت رعاية البيت والأولاد للوفاء بالتزامات الأســرة ضــرورة؛ عُدت للبيت متحملة الإمكانيات القاصــرة لزوجي وبذلت جهدي للوفاء باحتياجات بيتي على الطريقة المصـرية التي يختصـرها المثل "الشـاطرة تغزل برجل حمار." وغزلت برجل زوجي.

لست طويلة اللسان ولا ساقطة لكنها النكتة التي تجري في دماءنا... سامحوني.

كدت أسقط مع طبيبي الشاب الوسيم الذي استشعر أزمتي وربما اشتم بغريزة الصـياد ضـعف الطريدة، فحاول إغوائي وكان زليخه فكنت يوسـف رغم سـكنه رأسـي وفراش أحلامي حين يأتي الليل... وقت الحصــار... فانتشــي حين أحلُم به، واســتيقظ وقد لانت عضــلاتي مسـترخية سـعيدة حتى أتذكر أنه كان حلماً، فأحزن مرتين... مرة لأنه حلم ومرة لأني خنت في أحلامي، فيلفني الصمت ويسكنني خواء.

تداخلت الأيام والناس والأحداث، وتحطم الليل وتســاقط كســراً، لتســكن روحي أمواج جثث محملة كراهية معنونة بالحب، فيولي الوجود وأعجز عن البكاء خائفة أن تقودني مشــاعري للضــلال والهلاك مع عشــاق موتي يتكاثرون حولي فأحاول انتزاع قلبي، فأجد أن لا قلب لي، وأن الروح مُغتصبة ولا أرض للحرية، فيحتلني السكوت بعد توالي الهزائم.

أيتها الخطية... ابتعدي واتركيني فقد سـئمت الوحش الذي تخلقين لينهشـني كل ليلة، ويتركني فارغة إلا من عظام الموتى وقد غاصت في روحي.

أيتها الخطية... لن تهزميني فها نحن التقينا ولم تمتد الأيدي... لم تنسـج الرغبة في روحي شيئاً إلا تلك الأشباح الليلية والأقنعة والجدران الباردة وفراش خال من الحب.

أيتها الخطية... لن تحملك بطني كي تولدين كل مساء طفلاً مجهولاً، أو نعشاً يضم روحي يسخر مني ويسألني:

"من أنتِ حتى تتحديني؟"

سوف أقتلك أيتها الخطية حتى وإن كنتِ قاتلتي... سأقتلك فيّ... بداخلي... مهما كانت عذاباتي في ليلات حياتي الصحراء... سوف أخلعك جلداً ميتاً كحية تبدل جلدها... لا... لن أسمح لوجهك، ولا شفتيك الكاذبتين، وخنجر الخيانة المختبئ في طياتك يلمع زهواً في عينيك أن تنتصرين علي.

لم عدت؟ كي تهزميني؟

أذهبي بعيداً في الغياب فقد تحصنت ضدك حين وطنت قلبي على الحزن، وأسكنت الصدر مرارة الصبر، ولملمت وجهي حتى لا تدهسه الأقدام، ويحترق بنارك ليُضحي كومة رماد... تحررت منك أيتها الخطية بعدما مات حلمي وأنا غافية فوق سطح كهف الحزن.

أشم حيرتكم من تصدقون؟

العذراء؟

المجدلية؟

صدقوا من تشاءون...

ما عاد شيء يهم.

وجه عاشر... حزين حائر

بريئـــةٌ حدّ السذاجة أنا... لكن ذَكيةٌ... هادئةٌ ولا أتمالَك أعصابي عند الغضب فأصـــرخ, واســـب لكني خَجولةٌ رغم ذلك... رُبما جَريئةٌ أحياناً... طَيّبة القَلبِ لكن مُتمرّدة... تِلقائية لكِن حين أُفكّر يقوم عقلي بألفِ حِساب!

غامِضــةٌ غُموضُ الليل... واضِــحةٌ وُضــوحُ الشَـمس... كلّ ما أعلَمه عَن ذاتي يَقبَل نقيضه، ويفي بكِل التناقُض

ما أعلَمه عَن نفســي أنها نفسٌ طِفلةٌ؛ لا تَعرف الغُرور لكِن عَزيزة؛ ســهلٌ جرح كبرياءها، وتُخفي داخِلها الكَثيرْ، وتَفضَـــحها عَفويتها غصـــباً، ولا تُشـــبهها نفس... تَضحَك مِلء فَمّها .. وتنْام باكية.

لست سوى باحثة عن الحب والسلام... جربت كل ما قدرت على تجريبه، وسرت في كل الطرق التي ظننتها تؤدي إليهما... بحثاً عنهما ولم أجد ســـوى الوجع؛ فكلما رست سفينتي على شاطئ اعتقدته أمناً وسلاماً، أو حباً ودفئاً لم يكن إلا سراباً أو حوتاً ظننته جزيرة، فأسقط في لجة الخديعة والوهم، ليلوثني واقع تجارب شرسة لم أردها وأنا ابحث عن النقاء.

علمتني الحياة ألا أعطي دون أخذ... ألا أثق براكب أمواج عابر... ألا أصـــدق عهداً... أن أسير دون أنيس... وألا أحزن على ماض لا يستحق، يؤرقني مارد ذكريات يلاحقني هامساً:

"لا تنسي أحزانك... هي باقية تلاحقك."

فلا تمضـــي ثانية إلا تذكرت وجوهاً جعلنني أذرف دموعي دماً بعدما رَحَلَتْ، تاركةً جروحها تنمو حتى قبعت جزيرة أحزان في قلبي.

فيا أمسي... لا تسكن ذاكرتي، وأغرب عن حاضري، ولا تجعلني أذكرك.

ويا أيها الحاضـر... أرسـم لي طريقاً، أهرب فيها من ذاكرة تُبحر بي نحو ماض خائن لا ينتهي... مجروح... حاضر في ذهني لا يموت.

ويا غدي المجهول... أمنحني ســـلاماً أمحُ به ما مضـــى، وأعبر ما بقى من طريقي بلا ذكريات خائنة.

مجدليـة وبتول

بدايات

تراجع الدكتور أحمد في مقعده وقد دارت به الدنيا بعد أن طوي الكشـــكول الذي اكتشف أنه أنهى قراءته في بضـع دقائق... لم يصـدق نفسـه وقد أخذته الحيرة – وهو أسـتاذ الأدب والنقد – من مسـتوى السـرد الراقي لطالبة وسـأل نفسـه؛ هل ما قرأه عمل أدبي أم مذكرات شخصية؟

انتبه على صوت هاتفه وتلقى التعليمات المنزلية اليومية بما يجب عليه إحضاره عند عودته من العمل... وجد نفسه يتحلل من كل شـيء بحجة أن هناك عملاً سيعيق رجوعه للبيت... كان بحاجة لأن ينفرد بنفسه دون أن يعرف لذلك سبباً.

خرج من مكتبه متوجهاً لســيارته وقد انتوى أن يقضـــي بعض الوقت في كازينو على البحر... فوجئ بماريا واقفة عند الســـيارة فارتبك عندما نظر لعينيها الجريئتين وشبح ابتسامة تسمح لثنيتيها الأماميتين بالظهور بشكل جعل قشعريرة تمشي من مؤخرة رأسه حتى آخر ظهره كتيار كهربائي مخدر... سألها:

- مستنية هنا ليه يا ماريا؟
- عايزه الكشكول.
- أي كشكول؟
- اللي أنا وقعته علشان تاخده.
- يعني ما وقعش منك؟
- لا... أنا كنت عايزاك تقرا اللي فيه ومكسوفة أديه لك.
- لسه عفريته ما تغيرتيش.
- مفيش حد ما بيتغيرش يا أحمد... آسفة قصدي يا دكتور.
- حصل خير... رايحة فين أوصلك.

- مش عارفة... مش عايزه أروح... زهقانة.
- وأنا كمان كنت رايح اقعد ع البحر.
- يضايقك لو قعدت معاك؟
- لا... اركبي.

*****

هي الإسكندرية على أعتاب الخريف وأواخر الصيف، يجعلها الزحام تبدو على مدى البصر كمخزن مهملات تملؤه الفوضى... يكاد ألقها أن ينقشع... وصلا وقت أصيل يدنو من غروب يوم مشبع برطوبة تُوهم بارتفاع درجة الحرارة... قال لنفسه ورائحة اليود القادمة من البحر تتسلل إلى أنفه "حتى الطقس أصبح مراوغاً!".

أجلسها وجلس في مواجهة البحر، فعدلت من مقعدها، وواجهته وهي تبتسم، وسألته وهي تنظر نظرة مباشرة في عينيه، أحس بها تغور في أعماق روحه فارتبك ونظر للموج يتراكض.

- أنت إيه اللي مضايقك؟
- مين قال أني متضايق؟
- أنت... هو فيه حد بيسيب بيته ويقعد ع البحر إلا إذا كان متضايق؟
- ماريا... استرخي واستمتعي بالبحر.
- وأنت... مستمتع؟
- أنت شاغله نفسك بيه قوي كده ليه؟
- وأنت مش مشغول بيه؟
- بنت... أنت بتقولي إيه؟
- ولا حاجه... ما قولتيليش.
- أقول لك إيه؟
- قريت الكشكول؟

- لا.
- لأ... أنت قريته.
- يفرق إيه إذا كنت قريته أو ما قريتوش؟
- عايزه أعرف رأيك.
- ويهمك رأيي في إيه؟
- أنت أستاذ أدب ونقد وأنا باحاول أكون كاتبة.
- واللي كاتباه ده يبقى إيه؟ مذكرات؟
- أرجوك يا أحمد... والا أقول لك يا دكتور؟
- مش مهم... عايزه تقولي إيه؟
- أنت قريت وأكيد كونت وجهة نظر كأستاذ وأديب.
- وجهة نظر عن إيه؟
- عن الجنس الأدبي... مستوى اللغة... أسلوب السرد... الحاجات اللي بتعلمها لنا احنا الطلبه الغلابه.

واتبعت كلماتها بنظرة كسهم رشيق اخترق رأسه وبسمة من جانب الفم الأيمن كشفت عن أسنانها الرقيقة ناصعة البياض حاول أن يفسرها كبسمة ساخرة لكنه فشل.

- أنت اللي تحددي نوع كتابتك... أنت مصنفاها إيه... جزء من رواية؟ قصة قصيرة... طويلة... مذكرات... خواطر؟
- بس ده شغلك أنت.
- أنت فايقة وبالك طويل وأنا مش فايق لك يا ماريا... ياللا بينا أوصلك في طريقي.

نهض وأشار للنادل الذي جاء فنقده حسابه واتجه نحو سيارته مسرعاً وهي تغز السير لتلاحق خطاه... ركبا وانطلق بالسيارة صامتاً وهي بجانبه لم تحول عيناها عنه.

*****

بقى مشـغولاً بتفاصـيل عمله وبيته بضـع أيام دون أن تغادر روحه تلك البسـمة المميزة والعيون التي تلمع بذكاء مستفز حتى فاجأته مرة أخرى واقفة عند سيارته تنتظره وقت خروجه وابتسامتها التي أرهقت خياله تصافح عينيه وهي تقول له:

- مرحباً يا دكتور.
- أهلاً ماريا... خير؟
- مش عايز تقعد ع البحر؟ أنا محتاجه أقعد ع البحر شويه مع حد باحبه.
- مع إيه؟
- آسفه... ما أقصدش... أقصد مع حد بارتاح له وباثق فيه.
- اركبي.

ركبت بجانبه وجلست مائلة تنظر له بهاتين العينين اللتين تخترق نظراتهما رأسه وبسـمتها السـاحرة لا تفارق شـفتيها حتى كاد أن يفقد السـيطرة على السـيارة... أوقف السـيارة وهبط وإذا بها تنتظر أن يفتح لها باب السـيارة... اضـطر أن يفتحه لها وأن يسـير وراءها ويزيح لها المقعد على الطاولة لتجلس، وجلس مواجهاً البحر فعدلت جلستها لتواجهه بنظراتها.

- مش ها ترجع لي الكشكول؟
- صحيح... أنت ليه مش كاتبه الشغل على الكومبيوتر؟
- مكتوب على الكومبيوتر... بس أنا با اكتب الأول بالقلم... لسـه سـحر الورق جوايا.
- يااااااه... ده أنت أديبة جامدة على كده.
- بتتريق؟
- لا والله... أنت بتفكريني بصـديق ليا... كاتب مشـهور الله يرحمه... ما كانش يعرف يكتب إلا على الورق الدشت وبالقلم الكوبيا... تعرفي القلم الكوبيا؟
- طبعاً أعرفه... ما قلتليش رأيك في اللي كتبته... محتاجه رأيك بجد؟

- ليه محتاجه رأي؟
- عايز أعرف مستوايا... يستاهل أكمل كتابة والا ابطل؟
- لا اكتبي.
- بجد؟ ده رأيك؟
- نعم بس فيه أسئلة يهمني أعرف الإجابة عنها.
- اسأل زي ما أنت عايز.
- فيه جزئين متناقضين في اللي كتبتيه.
- طيب مش تقول الأول أنت بتصنف اللي كتبته إيه؟
- أنت اللي تصنفيه.
- ماشي يا عم الدكتور... إيه هما الجزئين دول؟ أكيد المجدلية والعذراء.
- برافو... بالظبط.
- ما أخدتش بالك أنهم مقصودين؟
- لاحظت أنهم ورا بعض وده خلاني اعتقد أن ده مقصـود... لكن يكونوا ورا بعض ليه؟

نهضت فجأة وانتصبت كرمح فرعوني قائلة:

- أنا لازم أمشي يا أحمد.
- ليه؟
- أنا أم وعندي مسئوليات... بيت وأولاد.
- طيب استني أوصلك.
- لأ مفيش داعي... خليك أنت... إلا قول لي... ممكن أكلمك بالتليفون؟
- أكيد... خدي رقم الموبايل.

*****

ترك سـيارته في مكانها وأخذته قدماه حيث لا يدري لا يشـعر إلا بلفحات هواء البحر الخريفية تلفح جبينه الذي يكاد ينفجر من تتالي الأفكار والهواجس... أحس بالندم لتركه ماريا تمضي... تمنى لو كانت معه يسيران جوار البحر... كان إحساسه بالوحدة ضاغطاً يكاد يخنقه وهو الذي اعتاد الوحدة وعايشها سنيناً طوالاً بعد خلافه مع أم أولاده التي حرص على أن يؤمن لها ولأولادهما حياة محترمة رغم اسـتقلاله بحياة بسيطة في شقة في نفس العمارة.

سار طويلاً دون أن يشعر بالحياة حوله لا وجود سوى للبحر كما لو كان صفحة ممتدة باتساع الكون، تكتُب أفكاره المتداعية نفسها على سطحه دون أن يبذل جهداً في اسـتحضـار هذه الأفكار التي تنزف داخله دون أن يدري بها أحد أو أن يحاول حتى مجرد المحاولة أن يحدث بها أحداً.

تنبه على رنين هاتفه ففتحه ليجد رقماً غريباً فاجأه صـوت ماريا على الطرف الآخر...

- أنا وصلت البيت... روحت؟

لم يعرف ماذا يقول فأخذ يردد...

- مين معايا؟
- أنا ماريا يا دكتور... لحقت تنساني.
- آه... أهلاً يا ماريا... خير؟
- ياه ده أنت مش مركز خالص... بطمنك أني وصلت البيت وباطمئن عليك.
- آاااه... حمد الله ع السلامة... أنا بخير.
- بتعمل إيه؟
- أبداً... باتمشي ع البحر وخلاص ها اروح.
- اقفل يعني؟
- مش قصدي بس...

- أوكي... باي.

أغلقت الهاتف ووقف متحيراً بعد أن أخرجته تلك المكالمة القصـــيرة من عالم أفكاره المتداعية... بحث عن سيارته فاكتشف أن أقدامه أخذته بعيداً... أشار لسيارة أجرة دارت به وعكست الاتجاه وأوصلته حيث سيارته فركبها وذهب إلى سوبر ماركت شهير اقتضى منه حاجيات أولاده وزوجته، وعاد لبيته وكل العالم وحياته رؤى مضببة لا يتضح له منها شيء واحد واضح المعالم... ماريا.

ترك سيارته لسائس الجراج يصفها، وأعطاه الحاجيات التي اشتراها، وطلب منه توصيلها لزوجه وأولاده، وصعد لشقته ودخل غرفة نومه مباشرة... خلع حذائه وارتمى على السرير بثيابه الكاملة وغرق في سبات عميق تتناوب عليه الهواجس.

*****

أيقظه نداء الطبيعة فنظر لساعته فوجدها الثالثة صباحاً ونظر للمرآة فأدهشه أنه بكامل ثياب الخروج... خلع ثيابه وقضى حاجته وذهب للثلاجة وتناول قطعة خبز بارد مع جبن، ازدردهما بجرعة حليب وعاد لفراشه فجافاه النوم... شعر ببرد مقيت يسكن أكتافه ويغزو قلبه الذي أخذ يخفق بشدة مذكراً إياه بوحدته.

ارتدى روباً فوق ثيابه يكافح به إحســاس البرد، وتوجه لمكتبه محاولاً الانشــغال بالقراءة أو الكتابة، فوجد نفســه يحلق في الفراغ بلا حراك وإذا به يرى وجه ماريا يطل عليه في فضاء الغرفة بابتسامتها الفريدة التي تبرز ثنيتها المميزة.

تداعت عليه ذكرياته وخيباته في إدارة حياته... تلك الحياة التي يحســـده عليها الآخرون الذين لا يرون منها إلا ما يســـمح به... وهو قليل... تذكر خيانات الأهل والأصدقاء... عناد الزوجة وفشلها في احتواءه وعدم الاهتمام به وباهتماماته... كيف ضــحى بكل ما يحب حتى يؤمن لها ولأبنائهما حياة محترمة، تُشــبع احتياجاتهم وكيف كان رد الجميل... تمرد وغرس كره مستتر في روح الأبناء لأبيهم!

تذكر صـــديقه... أبيه الروحي... وتدخله في أحد الخلافات مع زوجه وعنادها وتشبثها بأسباب تافهة للبقاء على الخلاف وكيف قال له صديقه بعد لقاءه غير المثمر بها: "ابحث لك عن حل... زوجتك تغار منك ومن نجاحك."

تذكر كيف صـــدمته الدهشـــة فأذهلته... أوليس ما يحققه هو ضـــمان لحياتها ومســـتقبل أبنائهما؟ تذكر ضـــياعه وبحثه عن الحب الذي لم يجده... وجد فقط الطمع والاستغلال!

أحس بألم يخترق عموده الفقري كتيار كهرباء شرير فقال لنفسه:

"ها هو الألم يعلن أن سنوات العمر تتفلت كماء يتسرب بين أصابع... قدري أن لا يرعاني أحد... زوجتي اختطفت أولادي الذين يحلمون أن يغادروا الوطن إلى بلاد تبذر الديمقراطية بالحديد والنار، وتبيع وهماً تشتري به أفضل العقول."

أحس ضوء النهار يتسلل لغرفة المكتب بين ثنايا الستائر المسدلة على النافذة فنظر للســـاعة وتمطى، ثم قام وتوجه للحمام... وقف أمام مرآة الحمام وحلق ذقنه... خلع ثيابه ودخل حوض الاســـتحمام وفتح المياه ووقف تحتها يرتعد دون أن يعرف... هل الرعدة من داخله أم بسبب الماء؟

قضـــى وقتاً طويلاً تحت الماء دون أن يتحرك ثم أغلق الصـــنبور وخرج وارتدى روب الاستحمام... خلع الروب ومضـــى إلى غرفة نومه عارياً... ارتدى ثياب الخروج ونظر إلى ساعته فاكتشف أن اليوم مازال في بدايته... بدا له السير على شاطئ البحر مناسباً لحالته المزاجية خاصة أن الوقت الباقي على موعد محاضرته الأولي طويل.

خرج من بيته وتوجه لشاطئ البحر العتيد، واتخذ لنفسه مساراً اعتاد عليه سنيناً هو ورفيقه البحر... تذكر كيف كان يسير في نفس المكان مع صديقيه يغنيان للحبيب المجهول...

"حبيبي يا للي خيالي فيك... حبيبي

ياللي حياتي ها تكمل بيك... حبيبي

مين أنت؟ ما أعرفش...

فين أنت ما أعرفش."

قال لنفسه:

"كم أنت مخلص أيها البحر لم تتغير... ما زال قلبك للأســـرار موطناً... أنت وحدك من عرف أن المرأة التي تمناها قلبي شـبيهة بالنسـاء اللواتي أحببتهن أنت، وأن الآلهة صـنعتها في وداعة حمامة وتيه طاووس وجمال وردة بيضـاء اختلطوا في بعض من زبدك.

عَرَفتُ أنها ذات المرأةَ التي حلم بها قلبي منذ الطفولةِ تُعيد خلق أمي، فأركضُ وراءَها وأمسـكُ ذيلِ ثوبها؛ وهي ذاتها من سـكنت صـفحات كتبي صـورة وجهها أيام الصبا، ورأيت قامتها تتبختر مع سحابات الخريف، وسمعت صوتها نغماً يتصاعد مع زخات مطر شتوي تقرع صفحة أمواجك أيها الصديق.

هي نفسها من جالستها في أحلام رجولتي باسِطاً أسرار رُوحِي حتى ذَهَبَت إلى بلاد النسيان البعيدة، وتركت خيالي خاوياً وروحي مُقفِرةٍ بَاردةٍ.".

تذكر كيف تَعوّد أن يوازن بين النور والعتمة طوال عمره مذ كان طفلاً يختبئ وراء زجاج نوافذ البيت، يرقب المطر والريح مترقباً ســـطوع شـــمس جديدة على كون صـقله الغيث، فيجعل الدنيا أكثر بهجة وجمالاً... عشـق الشـمس تنسـاب من الأفق، وتغمر الشـوارع والبيوت المسـتكنة لحزن شـتاء الإسـكندرية النقي الموحي بهدوء جلي حتى أيام النوات.

أخذه السـير للبعيد دون أن يشـعر بالوقت، وهبطت الشـمس على الجانب البارد من الدنيا حيث انتظر البحر الشمس أياماً فلم تأت.

وجد نفســه يتذكر ماريا بلا مقدمات، وأحس برغبة قوية لو شـاركته المسـير في هذا الجو البحري الخريفي الأجمل... قفز إلى ذهنه ما كتبته، وأدهشـــه ووجد نفســـه يتساءل:

"ماذا لو كانت المجدلية هي الحقيقة؟ لماذا كتبت هذا الجزء؟ أهو تعبير عن رغبات مكبوتة أم مذكرات ســـرية، أرادت أن تخرجها للنور دون إدانة حتى تتحرر من ضغط هذه الأحداث على روحها؟ أمن الممكن أن تكون ماريا البريئة هي تلك المريبة؟"

عادت لذاكرته المشـــاهد الأثيرة لديه في الأفلام العديدة التي شـــاهدها عن حياة الســـيد المســـيح وهو يلقي بكلماته في وجوه أحبار يهود وهم على قيد أنملة من رجم المجدلية:

"من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر."

استدار بهدوء وسار في طريقه لمبنى الكلية في حرم الجامعة بسووتر.

*****

دخل مكتبه وفتح درجاً اعتاد أن يضـــع فيه أوراقه الهامة ويغلقه بمفتاح... أخرج مجموعة أوراق قديمة مسطرة واضح عليها خط يده... وضعها أمام عينيه وأخذ يقرأ.

"جاء الشتاء وظلت الشمس مختفية هناك أياماً طوالاً... سفني أُحرقت وصمدتُ، ورحتُ أتجنب بإصرار السؤال العبء:

هل أعود... وكيف... ولماذا؟

السؤال ترفٌ لا أستحق أن أسأله... سيندثر في قلبي وعقلي وأنساه مع الأيام... سأُنحيه حتى أنساه إذ لم تُجدِ نصائح وتوصيات صديقي وأستاذي بالجامعة، ولم أعثر على أحد يساعدني، واكتشفت أنى وحيد ضائع، أنتقل من عمل غير مهم إلى بيت هو ثلاجة حفظ نفس لا تختلف عن ثلاجات حفظ الطعام.

حافظت أوقات الفراغ وحدها على توازن روحي ففيها أقرأ بنهم كل ما يتيســـر لي الحصول عليه بلا قصد أو خطة... فقط إرضاءً لنوازع تعلقت بها منذ صباي.

قاتل إحســـاس الغربة في الوطن والاغتراب بين زوجة وأبناء... أنا مخلوق بلا وطن... ســـكندري تائه... أكثر يقيناً منه اليهودي التائه فلديه ذاكرة وحلم... أتحرك

وأسعى كحيوان برى يُعزيني انحيازي الفطري للعمل فحسب... عمل يوفر طعاماً يسد الرمق وسكن يقي من البرد، ودخلٌ يُعفي من ضياعي وأسرتي.

صرت أنام وأستيقظ فأواصل ما انقطع حتى تجلد الضجر، وتلاشى ألم الحزن، وضاعت المعاناة، وتبلدت مشاعري وصار الاستمرار عوناً وسبباً للبقاء والشقاء."

*****

لم يكمل القراءة، وأعاد ترتيب الأوراق في ملف، وردها لموضعها الحصين، وأخرج كشكول ماريا ونظر إليه... قرر أن يحتفظ منه بنسخة ويرد الأوراق إليها... وضع الصفحة الأولى على السكانر، وأخذ في مسح الأوراق حتى انتهى... حفظ الصور في ملف PDF سماه ماريا، ووضع الكشكول على المكتب.

*****

طُرق باب مكتبه... سمح للطارق بالدخول فإذا بها ماريا... تدخل بثقة ناظرة في عينيه مباشرة دون كلمة... جلست وهو ينظر إليها مندهشاً، ودون أن تنبس ببنت شفة، مدت يدها، وأخذت الكشكول، وخرجت دون أن تنطق حتى بالتحية.

*****

خطر له خاطر نفذه فوراً... امسك الهاتف واتصل بصديقه أستاذ الأمراض العصبية والنفسية بكلية الطب فجاءه الصوت ضاحكاً...

- والله زمان يا أبو حميد... غريبة منك يا ندل.
- هو إيه الغريب ياض؟
- أنك تتصل... مش عادتك... أنا عادة اللي باسأل عنك... ما أنت براوي طول عمرك... أكيد فيه سبب لاتصالك.
- أيوه يا مفتح.
- خير؟
- عايز رأيك المهني.

- في إيه؟
- فيه عمل سردي عندي وعايز رأيك فيه.
- رأيي أنا؟
- ايوه رأيك أنت.
- بس أنت بتاع الأدب وقلة الأدب هههه.
- بطل يا كمال... أنا با اتكلم جد.
- ماشي... ما تتحمقش كده... وعايز رأي ازاي؟
- الموضوع فيه علم نفس وأنا متلخبط هي عقدة الكترا أو فصام؟
- هههههه... أنت تتلخبط! ده يبقى موضوع كبير على كده.
- أنا ها ابعت لك سكان تقراه ونتكلم.
- ماشي ... ابعت وأنا ها أقراه أول ما تبعته.
- أنا ها ابعته دلوقتي.
- ماشي... نتقابل امتى علشان نتكلم؟
- شوف أنت.
- يوم الخميس؟
- معقول... فين؟
- مش ها ينفع نتقابل في تريانون ولا ديليس ولا أتينيوس.
- أمال فين؟
- إيه رأيك في النادي؟
- نادي أساتذة الجامعة؟
- أيوه... الساعة سبعه كويس؟
- ماشي... بس هات البن بتاعك... أصله وحشني... هههه.
- ماشي... سلام يا كيمو.

- سلام يا أبو حميد.

ترك الهاتف... استدار وفتح بريده الإلكتروني وأرسل الملف دون كلمة أخرى، ثم فتح ملف ماريا لا إرادياً وأخذ يعيد قراءته بنهم جديد لم يظن يوماً أنه قادر عليه هو الذي مل الكتابة والقراءة.

*****

انتهى من القراءة، وأغلق الكومبيوتر، وجمع بعض الأوراق في حقيبته، ومشـــي شبه مغيب إلى سيارته تحكمه العادة... فوجئ بماريا تنتظره عندها كما لو كان بينهما موعد، فتح باب ســـيارته، فتوجهت بهدوء وفتحت الباب الآخر وجلســـت في المقعد المجاور له... نظر لها مندهشـاً وهي تخرج (مصـاصـة) وتأخذ في لحسـها بطفولة مدهشة... أدار محرك السيارة وسألها أين تريد أن يوصلها، ففاجئه صوتها وقد تحول إلى صوت طفلة يقول له:

- عايزة ألعب يا أونكل.
- عايزة إيه؟
- عايزه ألعب... وديني الملاهي.
- أوديكي فين؟
- الملاهي... ما تعرفش الملاهي؟
- عارف الملاهي... بس دي للعيال مش للكبار... هما أولادك هناك؟ وبعدين ماله صوتك؟ متغير كده ليه؟
- أنا صوتي كده... وبعدين أنا ما عنديش ولاد لسه... أنا لسه صغيرة... لما أكبر واتجوز أبقى أجيب ولاد.

أصابته دهشة صاعقة ولم يعرف كيف يتصرف... وجد نفسه يتجه للداون تاون وبمجرد أن صـف سـيارته في سـاحة الانتظار إذا بها تفتح باب السـيارة وتركض في طفولة غير مصـطنعة نحو سـاحة الألعاب، وتشـتري بطاقات اللعب وتتوجه في بهجة

خبير حقيقية إلى الألعاب، وتصرخ فرحاً وتزوم غضباً حتى أكملت كافة ألعاب الصالة وهو يتأملها ترتمي على صـــدره، تعانقه وتقبله في خده شـــاكرة طالبة منه أن يعود بها للمنزل.

أوصلها لمنزلها فنزلت ركضاً وهي تشير مودعة في فرح حقيقي وهو متجمد في مكانه غير مصدق لما يرى... انتبه لنفسه فقاد سيارته لبيته شبه مغيب، متمنياً لو كان موعد صديقه كمال عواض الآن.

*****

جاء اليوم الموعود فكان يصف سيارته قبل الموعد بدقائق في نفس المكان الذي اعتاد... اســـتقبله موظف الاســـتقبال بحفاوة حين دخل من بوابة النادي... رد التحية بفتور ومضـــى إلى مكانه المفضـــل في آخر الردهة الفســـيحة وجلس... جاء النادل يحييه، فمد له يده بكيس البن، فأخذه مبتسماً ومضى.

لم يُكمل عقرب الثواني دورته إلا ودخل الدكتور كمال عواض عليه هاشـــاً... صـــديق العمر والطفولة... قام ليحيه فأخذه بالأحضـــان في فورة مشـــاعر مفاجئة، ثم أشار عليه ليجلس... رآه النادل فجاء، فقال له الدكتور أحمد:

- عبده... قهوتي وقهوة الدكتور بسرعة... عندنا شغل مهم.

انحنى النادل في اســـتجابة مهذبة ومضـــى بينما اعتدل كمال في مقعده ونظر مبتسماً لصديقه قائلاً:

- كان عندك حق تتلخبط يا أبو حميد.
- كويس... ليه بقى؟
- لأن الورق اللي بعته بيقول كلام كتير قوي.
- بيقول إيه؟
- بيقول إن احنا قدام شخصية مركبة بشدة.
- لكن قول لي...أنت تعرف صاحبة الورق ده؟

رد أحمد مرتبكاً...

- أنت ليه بتقول صاحبة الورق مش صاحبه؟
- الورق مكتوب على لسان واحدة.
- فيه أعمال كتير كتبها رجاله على لسان ستات.
- ماشـي... بس ما جاوبتش... أنت تعرف صـاحبة الورق؟ أنت قابلتها...حصـل إيه؟
- مش ها اخبي عليك يا كمال أنا قابلت البنت وحصل موقف عاجز أني افهمه!

حكى له بالتفصيل ما حدث مع ماريا في الستي سنتر وصالة ألعاب الملاهي ثم سأله:

- تفتكر دي حالة فصام؟
- عارف! سهل نقول فصام... لكن علشان نشخصها شيزوفرانيا لازم حاجات تانية غير الورق... وده رأي مهني.
- قصدك شخصية الورق اللي بعتهلك زي بطلة فيلم بئر الحرمان؟
- كويس انك فاكر... الفيلم ده من أفلام السيكو دراما المصرية المهمة.
- انا فاكر الفيلم ده كويس متاخد من قصـــة لإحســـان عبد القدوس وإخراج كمال الشـيخ وبطولة سـعاد حسـني ومحمود المليجي ونور الشـريف وبيحكي عن ناهد المريضة بانفصام الشخصية.
- دي غلطة في التفسـير بسـبب إن اللي فسـروا الموضـوع ما عندهمش الخلفية العلمية الصحيحة... بس واضح أنك مهتم بيها اهتمام خاص.
- أنت نفسك لسه قايل أنها شخصية مثيرة للاهتمام.
- بصراحة لك حق تتلخبط... واضح أنك متورط عاطفياً معاها.
- بطل تتذاكي واشرب قهوتك يا مفتح.
- ماشي يا دكتووووور... لكن يرجع مرجوعنا للشخصية اللي في الورق بتاعك.

- مالها؟
- الشخصية من النوع ده غالباً عندها اهتمام شديد بالروحانيات.
- تقصد Spiritualism؟
- نعم وممكن كمان Parapsychology.
- تقصد تداعي الأفكار؟
- أكتر... بيكون عندها قدرات تنبؤية... مكن تحلم أو تتخيل أحداث ما حصلتش وتحصل معاها بعدين، أو تشوف أماكن بوضوح في حلم ما شفتهاش قبل كده وبعدين تشوفها في الواقع.
- يعني قصدك أن اللا وعي بيختلط بالمشاعر ويصنع نبوءة؟
- فيه تجارب اتعملت على بعض الحالات أكدت إن فيه شخصيات ثانية تنبعث خلال التنويم المغناطيسي.
- معقولة! إزاي يتوجد عقلين في نفس الوقت؟.
- من آخر القرن التسعتاشر، كان فيه رأي سايد بيقول أن التجارب المؤلمة عاطفياً بتسبب اضطرابات نفسية معقدة وعميقة حتى في أكثر الأفراد مرونة مع عدم استقرار عاطفي.

عاد النادل حاملاً فناجين قهوة جديدة وعلبة البن التي سبق له أخذها، توقف الحديث وعاد النادل من حيث أتي وبقى الصديقان يرشفان القهوة بتلذذ، وعادا للتحاور، فقال كمال بلهجته الودود المميزة:

- أعتقد مش سهل أحكم طبياً على الحالة اللي أنت حولتها لورق... يلزمني أكتر من الكام صفحة دول علشان أقدر آخد قرار بتشخيص.
- تشخيص! ياااه... أنت قوام اعتبرتها مريضة؟
- أنا لا اعتبرت ولا ما اعتبرتش... أنا با أقول لك الورق ده ما يكفيش أني أكون وجهة نظر علمية... فهمت يا بطيخة؟

- فهمت يا فكهاني... أشرب قهوتك.
- سيبنا بقى من موضوع التحليل النفسي وخلينا نتكلم عنك... أنا عارف أنك من يوم ما رجعت مش مرتاح رغم أن أحوالك المادية كويسة وأخدت وضعك في الجامعة دلوقتي والبلد استقر بعدما انتهت حماقة الإخوان.

فكر أحمد قليلاً ثم ردد بهدوء:

- أقدر أقول لك يا كمال يا خويا وضميري مستريح إن المسألة أكبر مني ومن أحوالي... الديماجوجية في بلادنا العربية كلها هي... هي... الروبه م الطينة واللته م العجينة... ومش بتنحسر وحتى مش في طريقها للانحسار... ومصر مش استثناءً بالمناسبة... أنا عديت الخمسين سنة وما خفتش أبداً من الحياة في بلدي... أنا مش معارض سياسي وعمري ما كنت... والمسألة المادية مش بتشغلني لأن أنا معنديش طموح للغنى والثروة... مشكلتي أعقد من كده... مشكلتي مرتبطة بنمط الحياة والتفكير... الغربة هنا في مصر... زيها زي هناك في البلاد العربية... وما تستغربش أني باسميها غربة.
- أمال إيه اللي قالب حالك يا بني آدم؟
- الواقع هو اللي بيخوفني يا كمال يا أخويا... الواقع اللي بيقطع الصلة اللي مفروض تربطني ببلدي... بالأرض والناس... أنا دلوقتي يتيم بالمعنى الحرفي للكلمة... من غير أب أو أم، والأبناء فقدوني أو أنا خسرتهم مش عارف، والأصدقاء مش فاضل منهم غيرك.

نظر كمال عواض إليه مشفقاً، وشعر بعجزه عن مواساة صديقه... أخذا يرتشفان القهوة في صمت، ثم استأذن كمال لارتباطه بموعد آخر... تصافحا وتعانقا على وعد بلقاء آخر وغادر كمال وتركه غارقاً في أفكاره.

*****

أخرج من حقيبته بضع أوراق وانحنى يكتب...

"قليل أولئك الرجال الذين هاجروا من أوطانهم ولم يعودوا إليها ولو لمرة واحدة... أنا واحد منهم... لم يكن الخليج بديلاً مريحاً لكن بديلاً ذا عائد... ناضلت لتأمين حياة أسرتي رغم التعب والشقاء.

عانيت الجوع، وكافحت، وصارعت، وحققت أشياءً، وفشلت في أُخر؛ وحين استقر بي الحال تملكني شعور اللا جدوى والسخف.

تنبهت متأخراً أن القضية في الوطن وليست حيث المال والعمل... القضية في الإسكندرية التي فررت منها حتى رأت الجامعة التي نشأت فيها أني ملائم للعودة، فعدت.

عُدتُ لاكتشف أني ضائع غريب ببلدي... مدينتي... الإسكندرية... التي تأكدت من بدايتي أنها اختُطفت، واغتُصبت، وضمت قسراً لغير بيئتها.

جُرحان يتناوبان فحسب على الذاكرة... وجع الوطن، ووجه ماريا تطالعني بنظرتها المنكسرة وشبح ابتسامة ملؤها الحزن، تُظهر ثنيتها المميزة بين شفتيها."

*****

عاد أحمد لمنزله مكتئباً لا يعرف لاكتئابه سبباً وإن كان واعياً به... سأل نفسه عن الســـبب... أهو الجو أم الوحدة، أو ما قاله كمال عن ماريا التي قرأها في الأوراق التي أرسلها له وحدثه عنها؟ أم هي شخصية الطفلة التي واجهته بها ماريا؟

رن هاتفه وحين نظر للشاشة وجد ماريا...

- مساء الخير يا دكتور.
- مساء النور يا ماريا... ازيك؟
- أنا بخير... لك يومين ما ظهرتش في الكلية يعني؟
- ياه... ده أنت متابعاني على كده.
- ما ظهرتش ليه؟
- أبداً... ما عنديش محاضرات والمفروض أنك عارفة كده.
- بس أنا عايزه أشوفك.
- ليه؟
- من غير ليه... عايزة أشوفك.

سألها ليتهرب من سؤالها...

- أخبار أولادك إيه؟
- بخير... بس مخنوقين.. عايزين يتفسحوا والمعدول أبوهم مش فاضي لهم.

خطر له خاطر أنار ذهنه في جزء من الثانية...

- أنا ما عنديش حاجة... ممكن آخدكم كلكم الملاهي وأنا أشتري شوية حاجات من الستي سنتر على ما يخلصوا لعب.
- فكرة هايلة... نص ساعة وها أكون جاهزة أنا والولاد.
- خلاص وأنا ها أكون في محطة البنزين القريبة من بيتك.
- أنت تعرف بيتي؟
- ما تقلقيش... أعرفه.

*****

عدل من هيئته ونزل لسيارته وأدار محركها وعقله يدور كماكينة أصابها جن... أراد أن يراها مرة أخرى في الملاهي، ويعرف كيف ستتصرف!

يؤرق ذهنه سؤال منذ لقاءه بصديقه كمال عواض عن متلازمة تعدد الشخصيات... هل تعاني ماريا من الشيزوفرانيا أو متعددة الشخصيات بالفعل؟ بدا له سؤاله ساذجاً فقد شاهد الطفلة تخرج وعايشها لكنه قال لنفسه:

"ليطمئن قلبي."

وصل محطة البنزين وما كاد يقف حتى كانت قادمة وفي يديها طفليها تركض بهما نحوه فرحة... وصلت للسيارة وفتحت بابها الخلفي وأجلست الطفلين، ثم جلست في المقعد المجاور له وانطلق.

وصلوا للستي سنتر وصف سيارته وانطلق الطفلان ركضاً حيث ساحة الألعاب وأمهما في إثرهما... سار في أناة وهو يستجمع كل ذرة في كيانه يريد أن يعرف كيف ستتصرف ماريا في صالة الألعاب!

أدهشه رزانتها وحرصها الشديد على الطفلين وتركيزها الفائق في حمايتهما ورعايتهما وتأمين تذاكر الألعاب بسخاء في نفس الوقت... حين اطمأن عليهم انسحب من ساحة اللعب وجلس في كافتيريا شهير بالقرب منهم بعدما أخبر ماريا بمكان جلوسه... جلس يحتسي القهوة التي يحب ويتأمل فيما حوله حتى اكتشف أنه يرى ولا يستوعب شيئاً مما يراه!

كانت أفكاره تلهث وراء ماريا الطفلة اللاهية في صالة الألعاب وكلمات صديقه كمال عواض عن متلازمة تعدد الشخصيات تعيد التشكل في عقله... لم يلاحظ كم من الوقت مضى وتنبه على يد ماريا تلمس كتفه ضاحكة وتقول:

- اللي واخد عقلك يا دكتور... رحت لفين؟

رد مغيباً...

- أهلاً ماريا.
- لسه عايز تقعد؟
- لو عايزين تقعدوا ما عنديش مانع.
- لا.. كفاية كده... لازم أروح أحمي العيال واعشيهم واحضرهم للمدرسة بكره.
- أوكي... مشينا.

*****

توجهوا للسيارة يركض الطفلان ويضحكان في سعادة غامرة وماريا تلاحظهما عن بعد حتى وقفا بجوار السيارة بلا إرشاد... فتح لهم أبواب السيارة وركبوا جميعاً وانطلق بهم عائداً.

جلست ماريا تنظر إلى جانب وجهه كما تعودت وعلى وجهها شبح تلك الابتسامة الغامضة التي تسحره... سألته فجأة:

- مش ها تقولي رأيك بقى في الورق اللي قريته؟
- ها أقولك.
- ومستني إيه؟ قول بقى.
- الورق فيه سرد ممتاز بس صعب يتصنف بسهولة.
- ليه؟
- اللي قريته أجزاء منفصلة مفيش رابط فني بينهم.
- يعني إيه؟
- يعني ناقصين اللي يخليهم جنس أدبي... رواية... متتالية سردية... أي شكل أدبي محدد.
- وده يتعمل إزاي؟
- بالكتابة.
- ما أنا عارفة أنه بالكتابة مش بالخياطة... بالكتابة ازاي يعني؟

- تكتبي أكتر وبعمق عن أهم شـــخصـــيات أو أحداث من اللي كتبتيهم كوجوه... وتكتبي بدون سـيطرة دينية أو أخلاقية على الشـخصـيات الفنية أو الأحداث... تخلي الشخصيات والأحداث هي اللي تتكلم وتتحرك وتفعل مش أنتي.
- يعني أكتب بصراحة؟
- مسـألة الصـراحة في الفن هي صـدق الكتابة مش صـدق الواقع... أحياناً الخيال بيكون أكثر صدق من الواقع ألف مرة.
- حيرتني يا أحمد.
- ما تتحيريش... أكتبي اللي يجي في دماغك وبعدين نتكلم.
- وتقترح ابدأ بإيه؟
- اعتقد أنت بدأتي بالأم والأب.
- أيوه.
- اكتبي عنهم تاني... وانطلقي واتحرري من الخوف والعيب والحرام... اكتبي اللي بتحسيه أو اللي بتعتقدي فيه أو فاكراه بحرية تامة.
- أوكيه... اتفقنا.

كانوا قد وصـلوا مع نهاية حوارهما، فسـلمت عليه وطبعت قبلة خاطفة على خده الأيمن شعر بنار حارقة مكان شفتيها ونزلت وأخذت طفليها دون نظرة واحدة له.

*****

مضـت بضـع أيام ولم ير أو يسـمع شـيئاً عنها... ظلت تحاور أفكاره وتترائى له دون وعي منه أو إرادة... كان طيفها يطارده وهو يحاول أن ينشـغل أو يتشـاغل فإذا بالابتسامة الساحرة تضيء أمام عينيه بلا مناسبة.

رن هاتفه وهو نائم فتنبه نصف مخدر بعد سهر طال مع تقييم رسالة دكتوراه قيد المناقشة... فتح عينيه بصعوبة ونظر إلى شاشة الهاتف فإذا بها السادسة صباحاً...

أدهشه أن يرى اسمها على شاشة التليفون... ماذا حدث ودفعها أن تتصل به في مثل هذا الوقت؟

استجاب تلقائياً لرنين الهاتف ووافق على تلقي الاتصال فجأه صوتها تتحدث بنبرة غريبة هي خليط من إنسان يتألم ويتمتع بمازوكية بألمه وهي تقول:

- صباح الخير يا أحمد.
- صباح النور يا ماريا... فيه إيه مصحيكي بدري كده؟
- أنا صاحية من ساعتين.
- خير؟
- أبداً... أمجد مسافر لشغل... صحيت معاه ومستنيه الأولاد يصحوا علشان يروحوا المدرسة فقلت أكلمك.
- فيه حاجة مهمة يعني؟
- أيوه.
- خير.
- أمجد نام معايا امبارح.

يصمت فتستمر...

- بهدلني...

يصمت فتصمت للحظة ثم تعاود الحديث بنبرة شبقية... حكت له بالتفصيل الممل كيف انتهكها قُبلاً ودبراً... كيف تألمت وانتشت وبكت وصرخت.

ظل واجماً لا ينطق بكلمة حتى انتهت من حكايتها... بدت كما لو كانت في صومعة اعتراف وهو كاهنها وحين انتهت بكت وقالت:

- وجعت لك دماغك... كمل نومك.

أغلقت الهاتف وتركته تدور به الدنيا وقد طار النوم من عيونه.

*****

مضت أيام ولم تظهر ماريا في الأفق... كانت حاضرة في ذهنه، يود لو اتصل بها لكن اضطراب أفكاره ومشاعره منعوه أن يتصل بها... تمنى كل يوم أن يجدها عند ســـيارته في نهاية يوم عمله لكن خيبة الأمل كانت بديل لقاها حتى طرق باب مكتبه ذات صــباح طارق ما أن ســمح له بالدخول حتى أشــرق عالمه ببســمتها المميزة... وضعت صامتة رزمة أوراق على مكتبه دون حتى أن تُلقي تحية الصباح وغادرت في صمت.

عقدت الدهشة لسانه، ونظر للأوراق ثم امتدت يده تقلبها وأخذ في قراءة ما بها.

*****

الزوجة الذليلة

صلاة إيزيس

"أنـا العزاء في الألم والولادة... الأولى والأخيرة... الُمبجَّلـة المحتقرة... الثيـب العذراء... الأم والابنة... من تنجب ولم تلد قط... العاقر التي أنجبت أولاداً يســتحيل إحصائهم.

خلقني رجلي وأنا الزوجـة والزوج... أنـا أم أبى وأخت زوجي... هو ابني الـذي تخليت عنه وأنا ابنته التي خانها... قدموا لي الاحترام على الدوام لأنني أنـا الفاجرة النبيلة الطاهرة.".

عاد الدكتور أحمد لمنزله فوجد الحارس يمد له يده بحزمة من الأوراق قال له أن سيدة أحضرتها وطلبت منه توصيلها لها.

أخذ الأوراق وركب المصعد متجهاً لشقته، وبدأ في تفحص الأوراق، فتعرف على خط ماريا الصغير الأنيق.

دخل شـقته وخلع الجاكت، وجلس لمكتبه يقرأ الأوراق في شـغف، يريد أن يعرف ما بها.

*****

عائلة مسمومة

أتردّد بين الموت والعيش في واقع ليس إلّا قبر مظلم لا صـوت فيه إلا صـدي، ولا وجود فيه سوى لدموع قادرة على تفتيت الصخور التي تجثم فوق رأسي.

أتساءل...

أواعية أنا أم مغيّبة؟

هل أنا ضحية أو قاتلة؟

أأنا خاطئة أم تائهة؟

هل أنضجتني المرارات؛ أم لا تزال؟

هل كنت وقحةً كاذبةً علي نفســـي ومن أحبوني حين ارتميت معانقة الوحل في شبق طويل؟

إن كانت تلك هي الحياة؛ فالموت هو الفائز الوحيد، الذي عرفته منتصراً.

*****

حينما يأتي المساء وتحل الطقوس العادية، ويبهت الضوء فيسقط هذا، ويموت ذاك، ويُقبض على أولئك، ويســقط الجســر، ويقع القضـــاة في يد العدالة، وتهاجر الطيور، ويحترق المصلون في تفجير كنيسة، وتسمع الجدران سماءً تبكي وتسقط كسفاً... لا آسف ولا أبكي؛ لكن يعشش الحزن بقلبي فقد انتهى الخير فينا.

هل من يجيبني؟

لماذا نتهافت في انتظار الألم؟

ألم يعد بنا حنين لنبضات الفرح؟

ويلي... لقد عشقت كل شيء إلا أنا!

*****

نسيت في غمرة أنانية الوجع أن أقول أني أحبك، وأبحث عنك عاشقاً في أبعد أرض، وأحاول نزع قلبي لأحاوره؛ لكن لا قلب لي وليس للحرية أرض.

*****

عشـــقت الصـــبار وتلذذه بدمي حين يقودني لكهف خوف وهلاك، يتكاثر فيه عشاقي الموتى وأنا عاجزة عن البكاء، يكاد جرار الوجع يمر على وجهي، يظنه حديقة زعفران لكن تبتلع الحديقة الفلاح، وتضـــعه حيثما يثرثر المذياع، لا يحكي إلا عن مصائب.

ملعون هذا الزمن... زمني... إن كانت تلك هي الحياة فالموت هو المنتصـــر الوحيد.

تقوتت الحزن حتى أصبح جزءاً مني، وعشتُ الموت حتى أصبح أنا، وسئمت الميت الحي الذي خلقت، وعشـــت مع وحش يتركني فارغة إلا من أقدام موتي تخوض في روحي حين يتساقط الليل قطعاً، وتتداخل الأيام والناس.

*****

ولِدت معاناتي مع ولادتي يوم خُلقت في تلك الأسرة... يسبقني أخ أكبر ويليني أصـــغر... الأب والأم حالة واحدة من القبح لكن كان أبي دوماً الأجمل، والأخوين حالتين مقززتين لا يقلان رعباً وإن كان الكبير أكثر نذالة... رغم ذلك أحبهما!

سأروي كل شيء ولن أخفي... سأحكي بلا خجل.

أبي

هل تذكُر يا أبي؟

كُنتَ إلهاً عبدته فحطمته يوم أذللتني وخنت طفولتي... دمرتَني يوم صفعتني... فضضت عذريتي وجعلتني امرأة حين رأيتك بين أحضان أخرى... جسدت لي الخيانة التي لم أكن أصدق وجودها، ولم تسامحني حين أخبرت أمي... وهي أيضاً.

*****

ما زلت أذكر هذا اليوم كأنه الأمس... لا تغادر ذاكرتي تفاصـــيله التي حُفرت بنار في حياتي... يوم مات أمجد... أبي... وكيف أفقت من غيبوبتي شـــخص آخر... كانت أمي صامتة صمت القبور، وأخي الكبير واقف في بلاهة لا يعرف ماذا يفعل، والصغير لاه لا يدرك ماذا جرى أو يحدث.

قمت من فراشي شبه مغيبة وعقلي يرتب ما يجب علي فعله... اتصلت بعمي بالتليفون ولما لم يكن موجوداً، تركت له خبراً أن أخاه مضى... لم أكن مستوعبة فكرة موت أبي أو الإقرار بها لكني كنت واعية أن إجراءات واقعية لابد أن تتم!

اتصلت بحارس المقبرة وأخبرته بتجهيز مقبرة الأسرة لدفن الجثمان، واتصلت بمن يجب عليه تجهيز الجثمان والتابوت، وطلبت عربة مذهبة مغطاة بمخمل أحمر قان، وخيولها مطهمة.

أتممت إجراءات الدفن دون أن أذرف دمعة واحدة بينما يقف أخي الأكبر كالأبله، والصغير تائه مندهش، وأمي تراقب في صمت، ويعاملني الجميع كرب أسرة وليست ابنة مكلومة في أكثر رجل أحبته.

عدت للبيت مع أمي وأخوتي بعدما انتهت المراسم فإذا بفورة غضب مفاجئة تثور بها أمي... دخلت مكتب أبي محطمة كل شيء وحين أمسكت صورته المعلقة على الحائط، وألقتها على الأرض، وداستها بقدميها، لم أملك نفسي من التصدي لها، ودفعها بعيداً، فاستندت على مقعد بالمكتب، وجلست تسبني، وتسب أبي وأنا الملم بقايا الصورة الأثيرة من بين بقايا الزجاج المهشم، وحملتها وغادرت لبيتي شبه مغيبة.

بقيت زمناً عاجزة عن البكاء، اجتر ذكرياتي مع أبي وأعيشها مرة ثانية... لا أشعر بأي شيء حولي... مخدرة بنزيف أحداث تعيد إنتاج نفسها، فيكاد قلبي ينفجر من عبء السكوت الذي أنوء به... أريد أن أتكلم وأبوح.

تقلب لي ذاكرتي المجن، فأتذكر أمي وصرامتها، وتقفز لعيوني صورتها يوم دخلت عليها وأبي غرفة نومهما بلا استئذان فإذا بها ساجدة عارية وأبي عار ملتصق بها من الخلف وصراخها يصم أذني أن أخرج وأغلق الباب، وينهال سيل شتائم من فمها اللاهث لسبب لا أعرفه... لأغلق الباب باكية... طفلة لا أدري ماذا يفعلان!

لم تتكلم أمي ولم يتكلم أبي عما حدث لكن اقترب مني أبي أكثر وأشعرني بحنانه وحبه، فاستغليت حب أبي لي وصرت ألبس من الثياب أكثرها أناقة، أرى نفسي تلك

الغادة الرقيقة تحلق كفراشة في عالم زاه، تحميها سلطة والد لا أب مثله... أتزين بأغلى المجوهرات، وأرتدي أفخر الملابس، وأتعطر بأندر العطور وأغلاها، وأشـــتري أرقي ما تنتجه بيوت الجمال العالمية، ولا أحمل من هموم الدنيا شـــيئاً، أعيش حياة الأميرات، يدللني أب أذوب فيه عشـقاً... كانت سـهراتي معه متعة لا تعادلها متعة خاصـة حين يصطحبني لملهى ليلي، ويسمح لي بالرقص والشرب شريطة ألا أسكر، أو أخبر أمي.

كبرت وكبرت مع الأيام مشـاعري تصـاحبها هموم من نوع يخصـني... أصـبح جسدي محور انتباهي واهتمامي... صرت امرأة أشعر بانجذاب قوي نحو أبي، وأشعر أن مشاعري لا يقابلها أي تعاطف منه رغم أنه لم يحرمني من شيء... وبدأت أصاب باكتئاب يصـاحبه غثيان ودوار وسـعال وفقدان للنطق، وأصـبح التوتر العصـبي رفيقي، تمنيت رجلاً مثل أبي يســكن قلبي وجســدي... وكانت الأحلام التي تراودني مخيفة، تطلق المسكوت عنه من رغباتي المكبوتة التي لا أجرؤ أن أتحدث عنها ... كنت أحلم أن يضاجعني أبي!

كنت أعيش في البيت تحت سـطوة أمي وصـرامتها وحرة منطلقة خارج البيت لا حد يحدني... صرت طالبة جامعية... أنا من يحدد مواعيد خروجي ودخولي البيت فلا جدول مدرسي ولا مواعيد ثابتة حتى كانت الصدمة الأولى.

كان لأبي مكتبين في العمارة التي أسسها جدي ونسكن فيها... غرفة مكتب في شـقتنا، وشـقة أخرى يدير منها عمله كخبير محاسـبي وضـرائب، وكانت تتردد على مكتبه زوجة أحد أصدقاءه كعميلة ينجز لها حسابات ضرائب شركتها الصغيرة... كنت متعودة على التردد عليه في مكتبه والدخول عليه بلا استئذان.

جاء اليوم المشـئوم حين اندفعت كعادتي للمكتب بكل شـوقي له ليصـدمني مرة أخرى وهو في أحضان عميلته جالسة على ركبتيه مغمضة العينين ورأسها ملقى للخلف وثيابها في حالة فوضـى وهو يقبل رقبتها وصوتها فحيح ممتلئ بالنشوة... تراجعت في رعب... أهذا أبي؟

كنت أظنه عاجزاً عن أي حب... لكن ها هو على علاقة مع زوجة أحد أصدقائه... ألست أنا ابنته التي تحلم به؟ ألست أنا الأحق بمكانها؟ ماذا يحول بيني وبينه؟

حتى الآن وبعدما غادر دنياي... ورغم كل شيء وأي شيء... يظل هو الرجل الأوحد الذي أحسست بحبه لي... هو الملك على مشاعري... المثال الذي تمنيت، وأتمنى، وسأبقى في انتظار رجلٌ يضاهيه رجولة وجمالاً... لم يمت أبي... هو باق في مكان لا أستطيع الوصول إليه... لكني واثقة أني سأصل له يوماً وسأعانقه ولن أتركه للأبد.

*****

حلم لا ينفك يطاردني...

صـــرت لا أنام الليالي إلا على أمل الحلم بك وأن أســـعد بجنون أمي الزائد ولا أشـــفق عليها إذ لا تدرك أحلامي التي وصـــلت لعلاقة بك تمنحني ليالِ مليئة بالبلل والنشوة، وأحس بذنب لذيذ تجاه أمي إذ أسرقك منها فأصير زوجة ثانية وأتحول ضرة لها... أسلمت في أحلامي.

تدنو مني فأتوهج حد الاحتراق، وأسدل جفوني كي لا تقرأ سري، واكتم أنفاسي لأخنق زفرات شوقي، وأعضض شفاهي تتوق لشفتاك وتنطقان أهواك... أهواك.

أشعر بيديك تتحسسان صدري، فأشعر بالنشوة ولا أحرك ساكناً ممتثلة بلذة هذه اللمسات تغزو جسدي، فتمنحه مشاعرَ نارية تحوله لهباً مستعراً، وتثور شهوتي من وجودك وإحساسي أننا سنقضى ليلتنا معاً، فأعيش مشاعر متناقضة بين الخطية والمتعة، ويميل غصني بالهوى وينحني، يسيل مني الرحيق إذ تغمرني أنفاسك شمس فجر وأنا أتخبط في محيط نداك جزيرة ذبيحة، يهطل الحلم على صخرها فيتفتح مبسمي الصب مخدراً تغفو فيه الأشواق، ويصحو الشبق فأصرخ ملء حلمي ضمني... آه من قهرك... من صمتك المزروع أنغاماً... ضمني... آه من دمك يجري في عروقي... لا تتركني وحيدة... لم أصـــفك... ما كتبتك، فحس بي دون لمس... أَدفيء صـــقيع الفؤاد... أشرق من ثنايا روحي كشمس شتاء تدغدغ الوجدان... جديد أنت كل مرة... ما عرفتك... ما اجتهدت أن أعرفك... حبك أعمق من النفس فكيف أفســـرك حبيبي وأنت البحر وأنا نورس يحلق في مداك... يحتضـــر شـــوقاً ينازع اللهفة... أنت بحر أغرق فيه ومركب يسير في جرحي... داخلي ألف شوق وتوق...لو كان بيدي لجعلتك أبناً داخلي... نبضـــاً لقلبي... لو كان بيدي زرعتك ورداً دائم الإزهار بين المقلة والجفن... لو كان بيدي توجتك ملكاً... عرشك هذا القلب النابض بك وبعشقك.

ها أنت تُحلّقُ في سَـما رُوحي تُعيدُ لي ذاكرة الأشـياء وتُهدي لي مُخَيِّلَتي وتُفَجِّرُ البراكين بأوردَتي، وتضــمني لحِضــنك يُشــبهُ الفِردوسَ، فيَمتدُّ تاريخي وتصــنع كل مرة بِداياتي وليس خاتمتي إذ يســرقني الوســن مترعة بحبك منتشــية من حلم تمنيته ليس ينتهي.

وقفة سريعة...

يظنني الكثيرون امرأة مجنونة حين أتحدث عنك بصيغة الحاضر، ويعتقدون أني عاجزة عن تقبل فكرة موتك... هم أغبياء صـدقني فأنت بداخلي حي لا تموت... حتى حين تزوجت هذا البغل الذي ابتليت به قبلت به عناداً... نعم عاندتك لأنك خضـــعت لرغبة أمي في تزويجي وأنت تعرف كل المعرفة أنه ليس على (مقاسي)!

نعم... عاندتك لأنه لا يشبهك في شيء وأنا لم أتمن في حياتي سواك رجلاً –أو من يشبهك في أسوأ الأحوال وربما أضعف الإيمان كما يقول المسلمون– اخترت لي ما هو نقيض لكل ما بك... هو حي ميت وأنت الميت الحي وأنا في انتظار قيامتي لألحق بك.

*****

الأم مدرسة... إذا أعددتها...

كنت أضحك يومها وأنا أقول لها:

- أموت وأشوفك بتبوسي بابا... نفسي أشوفه وهو بيحضنك.

فكان كفك أسرع من البرق على وجهي وأنت تقولين:

- أنت طالعه وسخة لمين؟ كسر رقبتك.

بكيت وقلت لك:

- ليه مش بتحضـــنيني؟ ليه مش بتبوســيني؟ عمري ما شــفتك بتحضـــني حد من أخواتي... ليه؟ وكمان بتضربيني علشان با اضحك معاكي.

رددتِ عليّ:

- الضحك من غير سبب قلة أدب... وبعدين احنا عيله ما بتحضنش ولا بتبوس... احنا ناس محترمين ولاد ناس محترمين.

من أين جاءكم الاحترام يا من تأكلين بأصابعك ثم تلحسينها؟

*****

ليســت ككل البشــر... هي بئر عميق ماءه عذب، أو ملح أجاج وقتما تريد... هي أكثر امرأة تتحدث عن المثاليات ولا تعمل بها... هي نموذج مثالي للسيدات اللاتي يتحدثن بالســوء عن أي واحدة... تتحدث بثقة أنه إذا صـــبحت امرأة على علي رجل وابتسمت له فبكل تأكيد قد نامت بأحضانه... هذه هي أفكارها.

أنتم جهلة أيها الســادة الرجال... أنتم لا تعرفون عن النســاء شــيئاً... أنتم لا تدرون أنه حين تحكي امرأة عن تفاصــيل فراشــها وعلاقتها الحميمة مع زوجها لرجل آخر فمن المؤكد أنها تمنح جسدها لهذا الآخر.

عرفت بعلاقتها بصاحبها في العمل، وسمعت بأذني كلماتها المليئة بالشغف وأنا مرتبكة... كنت صـــغيرة في ثانوي حين عرفت وفهمت ماذا يعني بحث الإنســـان عن الحب، وفهمت.

كنت كلما رن التليفون وسمعت صوت رفيقها، لا أملك إلا أن أرد بمنتهي القرف وهي فاهمة كل الفهم أني فاهمة وتتجاهل هذا الفهم... أي أم هي تلك المرأة؟

شـــاهدتها في المصـــعد معلقاً بين الأدوار وهو يحتضـــنها من الخلف وكفيه تحتضـــنان ثدييها وهي تضـحك بغنج، لم أرها أو اسـمعها تضـحكه طوال حياتي... تأكدت أنها رأتني وعرفت أني رأيتها، ولم تطلب مني ألا أحدث أبي بما رأيته أو أعرفه... كانت نظراتها كافية أن تجعلني أصمت صمت القبور!

أعرف جيداً أنها تتألم من دورها كربة بيت هجرها زوجها، فصـبت عواطفها وكل ما لديها من حب على ابنها، وتناسـت وجودي ووجود أخي الأصـغر وغارت من نجاح أبي ولفظته عاطفتها، فمنحت قلبها ومشاعرها لعشيقها أمجد باشا زغلول... زميلها في العمل، وزوج عشيقة أبي!

وهكذا... كتب عليّ أن أحب أبي لدرجة الذوبان في وجوده وأن أراه في نفس الوقت بين أحضـــان امرأتين، وكتب علي أن أخاف أمي خوف الموت، وأن أراها بين أحضان رجلين ولا أملك إلا الخرس... الحب أمامي ومن ورائي، وفوقي ومن تحتي وأنا منه محرومة كما قال الشعر القديم...

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

*****

الأستاذ أمجد باشا زغلول

هو زوج المرأة التي يعشقها أبي... وهو الرجل الذي يعشق امرأة أبي... أمي... وهو معلمي الخاص الذي علمني مصادر قوة الأنثى وقدرتها السيطرة على أي رجل – فقط– بضعفها.

هو المعلم الفاسق الذي لا يعرف حرمة لمهنة يفترض فيها أن تكون الأشرف، والأرقى، والأطهر... كنت أرى فيه صورة أبي حتى عرفت بعلاقته بأمي!

ثم لاحظت نظراته لي... كان هو نفسه من غازلني وقبلني أول قبلة... كان يعطيني درساً خصوصياً وكان يضع يده على ركبتي أثناء الدرس... أحسها باردة أول الأمر ثم تصبح جمرة من نار... نظرت في عينيه بثبات مرة من المرات فحرك يده لأعلى ركبتي على فخذي فارتعش جسدي، ولم يخفى عليه الأمر فوضع يده الأخرى في صدري واعتصر ثدي وأنا مشدوهة جامدة؛ حتى أخذ يفرك حلمتي، فأخذتني رعشة زلزلت كياني، وغمرتني نشوة بللت معها ثيابي؛ حين انتبهت قمت مرتبكة وركضت خارجة فلملم أوراقه وهو يقول: "كفاية كده النهار ده." وغادر.

جاء الأستاذ أمجد في موعده التالي، ولم يتورع أن يفعل ما فعله في المرة السابقة، وزاد على فعله أن وضع يدي على عضوه... علمني كيف أقضي له حاجته، وهو يقبلني بشغف يكاد يمزق شفاهي.

أصبح الدرس الخاص ثلاثة أقسام... يشرح لي أمجد الدرس، ثم تبدأ يده العبث أثناء إجابتي على الأسئلة حتى أرتعش شهوة، فأصبح مطالبة برد الجميل له، ثم تنتهي الحصة.

استمر الحال على ما هو عليه حتى رأيته مع أمي في المصعد، فامتنعت عليه، ومنعته أن يمس شعرة مني، وكانت الامتحانات على الأبواب، فأقنعت أبي بأني بحاجة

للاستفادة من وقت الدرس الخاص في المذاكرة للاستعداد للامتحانات، فأعجبته الفكرة ووافق.

المتر أمجد الرباط الشريفي

الفلاح المتلون الخبيث الذي لا يتورع عن بيع أمه ليأكل بثمنها!

كان أبي قد حاول المستحيل أن أعمل معه في مكتبه الخاص، فأصررت على أن أخوض تجربة العمل بطريقتي، ووافق بعدما وعدته أن أشاركه أعباء المكتب بشكل منتظم.

كان مكتب المحاسبة القانونية الذي أسسه المحامي أمجد الرباط الشريفي يقع بالقرب من منزلنا في شقة صغيرة لكن أنيقة.

استقبلني المتر أمجد بلياقة وعاملني أفضل معاملة حين استقبلني أول مرة وأنا أبحث عن عمل... حين عرف اسمي اتضح أنه يعرف أبي، ورحب بي في العمل بالمكتب الذي كان يقوم بالمراجعة القانونية لحسابات وميزانيات العديد من الشركات الصغيرة؛ لكنها كانت كافية لتجعل صاحب المكتب يعيش عيشة راضية.

مضى شهر والثاني والأمور تسير على أفضل ما يكون؛ لكن اتضح فيما بعد أن معاملة المتر بود ولطف الوهلة الأولى منذ اللحظة التي دخلت فيها مكتبه لم تكن إلا مقدمة للالتفاف حولي، ونصب شباكه لاصطيادي.

تقرب مني بنعومة ثعبان، واستطاع أن يجعلني أحكي له عن أوجاعي حين ظننت أنه يقدر ويتعاطف؛ لكن لم يكن تعاطفاً بل طعماً خبيثاً ألقاه في طريقي، فالتقمته بكل هبل وسذاجة.

تعود أن يأتي لمكتبي، ويقف ورائي، ويضع يده على كتفي ويناقشني فيما أفعل، وأحياناً يمسح بيده عللا شعري بود، أو يربت على ظهري بين كتفي برقة، وتعودت على فعله ولم اعترض حتى جاء يوم جاء فيه مدعياً أنه يراقب ما أفعل ووقف خلفي ووضع يده على كتفي وفجأة دار نصف دوره وإذا به يلتهم شفتي... حاولت التملص

منه لكن شلتني المفاجأة، وزاد الطين بله أني بدأت استمتع بقبلته، واسترخي بين يديه بعدما أكمل دوران جسده ليواجهني، ويرفعني لأقف بين ذراعيه بلا حول ولا قوة شبه مغيبة.

أصبح التقبيل عادة يومية، تتكرر أحياناً عدة مرات حتى جاء يوم هممت فيه بمغادرة المكتب، فإذا به يطلب مني الانتظار والمجيء لغرفته... ذهبت بحسن نية فوجدته عارياً كما ولدته أمه... أخفيت عيوني بكفي واستدرت؛ لكنه تحرك بخفة ذئب وأغلق الباب، وجذبني لأحضانه وأنا أكاد أموت خوفاً فبكيت.

مرت الأيام وأصبحت عادة أن يغلق المكتب بعد نهاية العمل ليضاجعني دون أن يقول كلمة قبل أن يتركني أعود للمنزل... لا أدري هل اكتشف عاهرة فيّ أم أني استسلمت خوفاً؛ لكن مرت الأيام لتثبت لي أن الشريفي لا صلة له بالشرف من قريب أو بعيد... كان فلاحاً متلوناً خبيثاً، لا يتورع عن بيع أمه ليأكل بثمنها... حاول أن يستغلني لإقامة علاقات جنسية مع عملاء المكتب حتى يضمن استمرارهم معه، وكان ذلك القشة التي قصمت ظهر البعير، فغادرت العمل غير نادمة.

الدكتور أمجد روفائيل شنودة

ذهبت إليه مريضة وعدت من عنده قتيلة!

بدأت علاقتي به في يوم هامشي جداً لم أعتقد أني سأتوقف يوماً عنده... ذهبت له كمريضة تبحث عن راحة من وجع يسير داخلي ببطء، ويمضي وفق ما يشاء متلاعباً بي.

دخلت عيادته بجسدي فقط بناءً على نصيحة مخلصة أنه من أمهر الأطباء الذين يعالجون مثل حالتي، وكانت روحي في مكان آخر لا أعرف كيف استجلبها.

أدخلني في عالمه الذي يشبه جهاز الرنين المغناطيسي، فصرت غير قادرة على التحرك، أو التنفس، أو الاختلاج بأي اختلاجة أثناء وجودي في عالمه هذا الذي يشبه نفقاً أبيضاً ضيقاً.

هاجمني بفيضانات متلاحقة وحملات مستمرة من التفهم اجتاحتني، وأحاطت بي كجيوش غازية لا تعرف التراجع، حطمت حصوني، ولم تجعل أمامي خياراً سوى الاستسلام.

تحرك بي في عالمه الذي لم يتجاوز العيادة، يغلق بابها، ويشعل المصباح الأحمر وما أن يضع يده على جسدي أغيب في عالم من الأحلام والرؤى، وتذوب الفتاة الرقيقة في كفه، ليدخل في وريدي شبق كما لو كان سائل جهنمي يتسلل في أنحائي، ليتحرك بي السرير الأبيض الضيق، لتبدأ جيوش، وماكينات حرب قديمة تُحكم سيطرتها على كياني كله جسد وروح، ثم يضحك داخلي ويقول لي فليحدث ما يحدث، فأغمض عينيّ، وأتجاهل تلك الجيوش التي تملأ كياني، ويتوقف قلبي، وأجدني أمارس لعبتي بعدما أكون قد دخلت داخلي إلي أعمق أحراش روحي حيث تقبع المجدلية، فأتماهى معها و اهتم بما يدور من حوارات ومناكفات بيني وبينه حيث أحس بنفسي

في نزهة من تلك التي طالما حلمت أن تكون جنتي، ولم أعرفها في الواقع وإن كنت رأيتها في مستنسخات جوجان وفان جوخ.

وكما أدخلني عالمه طردني من جنته حين قال لي أن علاقتنا يجب أن تنتهي لأننا نغرق في الخطيئة... أحســـســـت بذل لم يغادرني لليوم، ووقتها عرفت كم كنت رخيصــة... انقطعت عنه، ومضــى وقت فإذا به يعاود الاتصــال بي محاولاً وصــل ما انقطع؛ لكن هيهات، فقد مات جزء مني ومات معه طبيبي وحبيبي.

*****

تتسحب عتمة كوني هنا ومدينة ماء غارقة في ليلها الذي يسرق الأنوار فيسكن قلبي صقيع مسافر عبر تاريخي أنا إيزيس وحواء وكل نسوة التاريخ, ويتسرب من قلبي نور يصــلي لأم النور أن أمديني برحمة منك يا ناصــرة المســاكين ورحمة للمتعبين وأنا متعبة, تنادي روحي وأنا على حافة وقت بين موتين , ينتظرون سقوطي حين يتلاشى نوري وتغيبه عتمة القابعين فوق حلمي.

أيا أم النور أسعفيني أنا الخاطية التي تبحث عن خلاص، فتسقطها في الطريق قلوب ليلية مسافرة في دمي، تنسج خيوطها شباكاً من حرير، تحرقني في دخان وجعي الهارب مني إليّ.

أين مني أنا التي هربت؟ وكيف لي أن اعيدها لنغزل سوياً مواقيت طهر تغسل روحي كما شوارع المدينة؟

ضــائعة أنا هنا، أبحث في الفراغ عن خطى براءتي التي كانت وعن أحبة راحوا ولم يبق منهم سوى اللا أحد، وليس من وجود يملأني فليس عنهم من بدل.

من يدلني على ظلالهم ، وشوارع غيبت خطى أقدامهم لأكون؟

منفيةٌ أنا في منافي ذاتي الضــائعة في كون سكنه برد محكيات عديمة المعنى، وغلفه صقيع حكايات تقتات على دفء روحي وأنا أحلم أن يُشرق صبح يقهر الظلمة؛ لكن الغروب دائماً بديل الإصــباح ... وما بين حلم شــروق وغروب لا يغيب، تغتالني

حكايات يوم تافهة، تحيط بروحي وبدني، لأصبح يرقة تسكن شبكة خيوط حرير يحيط بها الموت.

أخوة يوسف

"انظروا كم حزين ويائس هو الصبي... هذا هو يوسف... لقد باعه إخوته لهؤلاء الرجال الذين هم في طريقهم إلى مصـر، وهناك سـيصـير يوسـف عبداً، فلماذا فعل إخوته من أبيه هذا الشيء الرديء؟ ذلك لأنهم يحسدون يوسف.

كان أبوهم يعقوب يحبّ يوسـف كثيراً جداً وقد اظهر له حظوة بصـنع قميص جميل له، فعندما رأى إخوته العشـرة الأكبر سـناً كم كان يعقوب يحبّ يوسـف، بدءوا يحسدون ويبغضون يوسف؛ ولكن كان هنالك أيضاً سبب آخر لإبغاضهم إياه.

لقد حلم يوسف حلمين؛ وفي حلمي يوسف كليهما، سجد له إخوته؛ وعندما قص يوسف على إخوته هذين الحلمين، ازداد بغضهم أكثر أيضاً." تكوين ٣٧:١-٣٥

*****

كان عدد إخوة يوسـف أحد عشـر أخاً أختصـرهم الزمن كلهم في أخوين ورزأني بهما!

أعرف جيداً أنهما يحباني؛ لكن يحبان نفسـيهما ومصـالحهما أكثر مما يحباني هذا بكل تأكيد.

*****

الكبير منهما كتلة من الذاتية التي لا تخجل أن تكون سـفيهة... كان لا سـتطيع أن يقربني يوم كان أبي سيد البيت؛ لكن بعدما مات فوجئت بكم الغباء والحسد يتفجران في سـلوكه حتى صـار سـلوكه لا يفتأ يذكرني بكل ما عشـته في أحضـان أبي... أدهشـني أنه يتذكر ما لا أذكر، أو بقى في عقلي من تفاصـيل كنت اعتبرها عادية فإذا بها جمر غيرة مشتعل تحت رماد خوفه من أبي... أبيه!

كبرنا واتسعت مسافة المشاعر بيننا... أضاع ما ورث عن أبي، وسافر مغترباً يبحث عن نصيب أفضل، فعاد بخيبة تحمل طفلاً، لا تجد متسعاً تهرب فيه من جنون أمي وغضبها إلا بيتي، وليس لها من صدر يستوعب غربتها، وأذن يسمع شكواها إلا أنا.

تعلم كيف يطأطئ الرأس أمام أمنا، ويتحمل تطاولها عليه وعلى زوجته لأن لا مكان يسعه وأسرته إلا بيتها، ويا لها من سخرية تلك التي يسخر بها منا القدر فقد عدت شقيقته التي يجاملها، ويحسن لها القول حين مدحتني زوجته عنده!

صدق من قال أن المصالح تتصالح!

*****

كان الصغير مثابة ابن لي احتضنته منذ ولادتي وكان أول من تذوق لحمي وهو رضيع، ويبدو أن مذاق هذا اللحم علق بذاكرته فاعتاد أن يلتهمني كلي بعدما نسى طعم ثديي الذي عوضه عن ثدي أمه.

لا تسيئوا الظن فهو لم يمس جسدي؛ لكنه وضعه في جوفه كما يلتهم المسيحيون جسد المسيح، ويشربون دمه قرباناً في التناول بالكنائس.

كان موت أبانا محور الهدم في حياته إذ تهدم العالم، وسقط قطعاً فوق رأسه حين اختفى السقف الذي يظله، فضاع رغم ذكاءه المفرط، وأصبح رديفاً للفشل الإرادي، لا يرى في النجاح أو تحقيق الأهداف أية جدوى... هذا إن كان قد رأى الجدوى –أساساً– في أي شيء.

ظللت أدفعه وأمي تؤنبه حتى دخل كلية الهندسة، لكن استيقظ البغل داخله في السنة الثالثة من دراسته الجامعية، وقرر العناد توقف هذا البغل عن الدراسة وهو على باب التخرج!

جُنت أمي، وأقامت الدنيا ولم تقعدها؛ لكنه أصم أذنيه عنها، وكان يخرج صبيحة اليوم، ولا يعود للبيت إلا والكل نيام.

اســتثمر ذكاءه وما تعلمه في التعامل مع المقاولين، ولأنه كان لطيف المعشــر حلو اللسـان، أحبوه، فأصـبح قادراً أن يعيل نفسـه، وحين زادت أمي من الضـغط عليه، هددها أن يترك المنزل ويستقل بحياته، فسكتت على مضض.

لم يكن أبداً بخيلاً، فكم فاجأني بهداياه الصغيرة لي ولأولادي، ولكنه أيضاً لم يكن يلجأ لغيري في أزماته المالية، واثقاً من عدم قدرتي على رفض طلبه مهما بدا هذا الطلب غير منطقي... كان هذا الخبيث يعرف جيداً أن الطيور لا تقتل صغارها، وكان متأكداً من كونه صغيري؛ حتى بعدما صار رجلاً.

*****

وما الحبّ إلّا للحبيب الأوليّ

أحمد عبد الناصر عبد الصمد... الصعيدي الشريف الشهم... رجل قل أن تنجبه امرأة... لم أعرف في حياتي أطهر منه ولا أنقى!

عرفته من خلال لجنة الرحلات بالكلية... كان بالسنة الأخيرة وعلى وشك التخرج... عقل مميز وأسلوب مهذب وأناقة بسيطة، تضيئها عناية فائقة بالشكل والنظافة.

تدفقت مشاعري تجاهه ولم أحرك ساكناً لكن تفاعلت روحه مع روحي عن بعد، وبدأ يبدي اهتمامه بي شيئاً فشيء ولم يكن أمامي سوى الاستجابة لمشاعره التي غمرتني بالدفء فقد فعلت كيمياء المشاعر فعلها، وحين طلب لقائي خارج الجامعة لم أمانع.

لم تكن مشاعري بريئة فقد أفسدها أستاذي الخاص كما لوث جسدي أما هو فقد كان أحرص على روحي وجسدي مني.

أقصى ما فعله هو تقبيل باطن كفي، وعرض الزواج عليّ بصراحة ووضوح شديدين، وخيرني أن أُسلم أو أبقى على ديني، فأصابتني الدهشة من سلاسة أسلوبه في التفكير والمباشرة.

كان ردي بسيطاً ومباشراً أنا الأخرى فقد قلت له أني لا أستطيع أن اقتل والدي المتدين بالزواج من مسلم وهو الرجل الذي أصبح (يُقدس) تقريباً كل عام منذ أن سمح للمصريين بزيارة القدس.

أصابه رفضي بصاعقة من الحزن، ورغم ذلك كان حريصاً على لقائي بانتظام حتى بعد انتهاء الدراسة وحصوله على شهادة التخرج المؤقتة، وبدأ رحلة انتهت باغترابه مليئاً بالحزن.

هل أخطأت بالاهتمام بمصير أبي وعدم الاهتمام بمصيري ومصير من أحبني وأحببته؟

لم يكن أحمد عبد الناصر مجرد تجربة مررت بها بل كان جرحاً بخاصرة الروح لم يلتئم حتى الآن فهو لم يغادر لا روحي ولا حياتي، فحين تزوجت فوجئت في حفل زفافي بباقة ورد فاخرة تحمل اسمه، وفي كل مرة دخلت فيها المستشفى لأضع حملي؛ كانت تهنئته التليفونية تسبق خروجي من مستشفى الولادة.

كيف عرف بهذه المواعيد الخاصة والمعقدة؟

من أين أتى بها؟

كيف يعرف أرقام تليفوناتي؟

لا أعرف... لكن المؤكد ن روحه لم تغادر عالمي، فما زلت أشعر بها تحلق في عالمي حين أحس بالوحدة أو افتقاد الحب، وأشـــعر كما لو كانت هـ>هـ الروح الطاهرة الحنون، تصاحب روح أبي، أو تتبادل معها الحضور، لتربت على روحي المجهدة حين افتقد الراحة والحب، وحين تهاجمني وحوش الوجع التي يطلقها المرض.

صـــار أحمد عبد الناصـــر روح تعيد لي الثقة في وجود حب وخير بهذا الكون، وترد لي العذراء الطيبة، وتخلصـــــني من أوجاع ذنوب المجدلية التي أعرف جيداً أنها مظلومة؛ وأن أفعالها ليست إلا رد فعل لقسوة الحياة والناس.

سامحيني سيدتي البتول فأنا منك وأنت مني... لكني لا أحب المجدلية وإن كنت أتعايش معها.

*****

طوي الأوراق، وبدل ثيابه، ودخل الحمام متحيراً ماذا يفعل، بينما تجوب رأســـه أفكار سريالية، تعبث بعقله.

وجد نفسه يدخل حوض الاستحمام، ويقف تحت رذاذ الماء الذي اكتشف برودته دون أن يحاول أن يجعله دافئاً حتى أحس بقشـــعريرة، فخرج من حوض الاســـتحمام، ووضع ثوب الاستحمام على جسده.

أحس بقرصـــــة جوع غريب، فتوجه للمطبخ، وفتح الثلاجة، وتناول منها قطعة خبز، وضـــــع عليها بعض الجبن وأخذ يلوكها في آلية وهو يتحرك نحو غرفة نومه بشكل آلي.

وصـل سـريره وقد انتهى من التهام قطعة الخبز، فخلع ثوب الاسـتحمام، وارتمى عارياً على السرير، وتغطى لينام في أحضان هلاوس، وكوابيس غرائبية.

اسـتيقظ مبكراً في الصـباح، فأعد قهوته، وشـربها كالعادة بلا سـكر، وبدل ثيابه، ومر على غرفة المكتب حيث أوراق ماريا، فأخذها وخرج ليركب سيارته.

توجـه لمكتبـه في الجـامعـة، فـدخـل دون أن يلاحظ نظرة الانـدهـاش في عيني الساعي الذي لم يتعود حضوره للكلية مبكراً بهذا الشكل.

حياه السـاعي ومضـى لتحضـير قهوته، بينما فتح هو جهاز الحاسـب وبدأ في تحويل أوراق ماريا لنسخ إلكترونية بمسحها على الماسح الضوئي.

انتهى من مسـحها، وأرسـلها بالبريد الإلكتروني لصـديقه الدكتور كمال، ثم رتبها بحرص في ملف بلاســـتيكي، ووضـــعها في درج المكتب في الوقت الذي جاء فيه السـاعي بجرعته الصـباحية الثانية من القهوة المرة، فأخذ يحتسـيها وهو يتصـل بالدكتور كمال صديقه يطلب منه موعداً للتلاقي.

*****

انتهى يوم العمل بإيقاعه الرتيب بلا طعم ولا لون ولا رائحة... توقع أن تمر عليه ماريا لتأخذ أوراقها كما حدث من قبل، وتأخر عن موعد خروجه المعتاد من الكلية... وقف بعض الوقت عند سيارته على أمل أن تطل، ولم تظهر.

قاد ســـيارته بهدوء في طريق الكورنيش لا يدري أين يذهب... وجد نفســـه أمام الكافتيريا التي سبق له الجلوس فيها مع ماريا، فأكمل الطريق ليعكس اتجاهه، وصف ســـيارته في الموقف واتجه لطاولة تطل مباشـــرة على البحر، وجلس مســـتمتعاً بهدوء المكان الذي يكاد يخلو من البشـــر... هي الإســـكندرية وأماكنها الأثيرة حين تداعبها نســـمات البحر الباردة، فيفر الغرباء، ويذوب الســـكندريون في المطر، وتطير أحلامهم في أحضـان رياح النوات المجنونة... وهو سكندري معجون برمل الشاطئ ومياه البحر المالحة.

أخذته أفكاره يمنة ويسرة... حاول أن يطاوعها، ويعمق التأمل في قضايا الوطن، ومســـئوليات حياته الخاصـــة شـــبه الخربة، وأعباء العمل الخالي من الإبداع؛ لكنه وجد وجه ماريا يتشكل فوق أمواج البحر المترادفة وسع الفضاء وهي تبتسم فتظهر الفلق بين ثنية سنيها الأماميين بشكل سحره ولازال.

حاول بكل طاقته أن يتخلص من الصـورة، وقال لنفسـه أنها وهم، وأن الجدير به بعدما قرأ اعترافاتها المذلة أن يدرك أن الملاك الذي كان يعرفه مات، وأن البقية الباقية هي شـبه إنسـان ليس به إلا وجود داعر، فوجد نفسـه يبتسـم بلا وعي، وصـوت داخلي يعرفه يقول له:

"أنت أهبل، والا بتسـتهبل؟ أنت تدرك جيداً أنها ليسـت لا ملاكاً ولا شـيطاناً أيها الدعي... هي ماريا القبطية... أفق."

تمت طقوس الجلسـة حين أحضـر له النادل قهوته المزدوجة المرة، فشـربها وهو يحس بطعم مرارة الحياة ممتزجاً بمرارة القهوة، فابتسم وهو يقول لنفسه:

"متلازمة ستوكهولم وأصابتك يا ولد... توحد فيك الظالم والمظلوم... افرح."

نهض وأخذ طريقه على الكورنيش الممتد، لا تعيقه أكوام الحجارة، ولا التكســـير الذي حاق بالرصـــيف الذي يتم تجديده أو ترميمه... لا فرق... ارتعش من لفحات الهواء البارد... تذكر أنه لم يسـتعد للشـتاء، ولم يهتم بارتداء ملابس مناسـبة، لم يُذكرهُ

أحد بالطبع فمن ذا الذي ســـيُذكرهُ؟ الأبناء الفاقدين المفقودين؟ أم الزوجة المتنمرة التي لو أراد تحطيمها لفعل؛ لكنه أبى فكرامته لا تسمح له فهي في النهاية شريكة مرحلة من مراحل العمر، وأم لأبنائه.

استدار عائداً، وفكر أن يركب سيارة أجرة إلى موقع سيارته لكنه قرر أن يسير عائداً من نفس الطريق، وعقله يسخر منه ويردد...

"خطى كتبت علينا، ومن كتبت عليه خطى مشاها."

ضـحك من نفسـه فها هو العقل الفلسـفي العلمي يحتمي بالغيب، ويفسـر واقعه بالقدرية.

وصـــل ســـيارته فركبها وعاد فأدخلها الجراج، وصـــعد لمنزله يمارس طقوس العودة...

خلع ملابس الخروج، وكعادته في ترتيب الأشياء اهتم بتعليق البذلة والقميص في مكانهما بالدولاب، وصـــف الحذاء في المكان المخصـــص له، وارتدى ثياب المنزل، وتوجه للثلاجة في المطبخ، فتناول قطعة خبز بارد، غطاها ببعض الجبن، وزاد عليها بعض شـرائح الطماطم... فتح علبة بيرة حين اكتشـف عدم قدرته على البلع ليسـوغ ما يأكل، اسـتلقى على السـرير حين انتهى، وفتح التليفزيون على قناة الأخبار التي اعتاد مشـــاهدتها، وتمدد يراقب العالم من خلال نوافذ التليفزيون حتى غلبته ســـنة من النوم استغرق فيها، وعلا شخيره، مؤذناً باقتراب نزلة برد.

*****

اسـتيقظ فزعاً على صـوت هاتفه كجبل تناثر قطعاً فوق رأسـه، وامتدت يده تبحث عن هذا الصوت والنوم ما زال يسيطر عليه، وعيناه تبحثان عن ضوء الهاتف... عثر عليه فأدهشـه أن يرى اسم ماريا على الشـاشـة، فارتفع نبضـه، وزاد ضـغطه، وسرعة دقات قلبه... تردد لحظة فقد تذكر فوراً كيف اتصـــلت به في الصـــباح المبكر لتحكي له

غزوات زوجها الجنســية... ســكت الهاتف، فهدأ للحظة لم يتركه الهاتف يهنأ بها فقد عاود الرنين الملح، فأمسك بالهاتف ورد، فأدهشه أن يسمع صوت ماهر شقيق ماريا آتياً من البعيد...

- دكتور أحمد؟
- نعم أنا أحمد... خير؟
- أنا آســف يا دكتور... أنا عارف أنها قلة أدب أني أزعج حضــرتك في وقت زي ده... بس صدقني أنا مضطر.
- حضرتك مين؟
- أنا ماهر أخو ماريا.

تنبه وصار قادراً على تركيز أفكاره بشكل أفضل فرد:

- خير يا أستاذ ماهر؟
- ماريا تعبت قوي واضطرينا ننقلها المستشفى.
- تعبت أمتي؟ وإزاي؟
- جات لها اتاك وقلبها وقف من شدة الألم.
- يا ساتر... وبعدين؟
- نقلناها على طول لســنتر طبي جنبنا عملوا لها تدليك لعضــلة القلب، وركبوا لها محاليل، واتصــلنا بالدكتور اللي بيعالجها وفهم الدكتور في الســنتر يضــيف أدوية إيه للي اداها لها، وقالوا يبقوا على تواصل لحد ما يجي بنفسه يشوفها.
- ربنا يستر عليها... أأمرني أنا أقدر اعمل إيه؟
- أنا بكرر أسفي يا دكتور أنا عارف إن الوقت مش مناسب... بس...

- ما تبسبسش يا بني قول على طول... عايز فلوس؟ عايزني آجي؟
- كتر خيرك يا دكتور... مستوره والحمد لله، ولو حضرتك تعبت نفسك وجيت مش ها يفرق حاجة في الوضع.
- طيب إيه المطلوب مني؟
- ماريا مصممة تكلم بابا!
- بتقول إيه؟
- زي ما بقول لحضرتك كده... مصممة تكلم بابا وبتقول أكيد إن فيه حاجة قوية مانعاه يكون معاها وعايزة تطمنه عليها وتطمئن عليه.
- يعني هي مش فاكره أنه متوفي؟
- بالعكس... هي متأكدة أنه عايش وفي المزرعة بتاعته علشان كده ما حدش عارف يوصل له.
- فهمت... الأتاك خلت الأحداث والأزمنة تتداخل في ذاكرتها.
- مش عارف يا دكتور... ممكن كده... لكن المؤكد أنها فقدت جزء من الذاكرة... بتفتكر حاجات غريبة الكل نسيها، وناسية حاجات تانية ما فاتش عليها وقت طويل... أنا حاولت أفهمها إن أنا ها اتصل بيه واطمنه رفضت وقالت إن مفيش حد يقدر يوصل له غير الدكتور أحمد... وبعد مجهود حاولت أعرف منها مين الدكتور أحمد لحد ما فهمت إن سعادتك أستاذها وفكرتني بحضرتك وإن خالك كان جارنا... والمسيح الحي يا دكتور حاولت اقنعها ان احنا نستنى للصبح ونكلمك لكن اتشنجت وعيطت وما عرفتش اعمل إيه اضطريت أطلع رقمك من تليفونها بناءً على طلبها.

- أنت جنبها؟
- مش بعيد.
- اديها لي.
- .....
- آلو... ماريا؟
- دكتور أحمد؟
- نعم يا ماريا أنا أحمد.
- كويس انهم لقيوك؟
- تحت أمرك... خير... عايزه إيه؟
- شوف... أنا عايزاك تكلم بابا تطمنه عليا...
- واشمعنى أنا؟ ما حد من أخواتك أو عمامك يكلموه.
- أنا عايزاك أنت اللي تكلمه... أنتوا طول عمركم صـــحاب وهو بيحبك ويثق فيك، وأخواتي دول مفيش منهم فـايـدة، واعمـامي إيـدك منهم والأرض... يعرفوا يمـدوا إيدهم وبس.
- حاضر... ها اطمنه عليكي.
- وترد عليّ بعد ما اتكلمه... أنا مش ها انام ها فضـل صـاحية منتظرة مكالمتك... أوكي؟
- أوكي... اتطمني ها اكلمه وأرد عليكي

*****

أغلق الهاتف، واســـتغرق في التفكير، يكاد عقله يتوقف مضـــى الوقت دون أن يشعر إلا برنين الهاتف يدق داخل رأسه وليس في أذنيه... كان يدرك أن الاتصال من ماريا... رد فجاءه الصوت واهناً...

- ما اتصلتش ليه؟ ما لقيتش بابا أنت كمان؟
- لا لقيته بس احتجت شوية وقت علشان الاقيه واعرف اتصل بيه.
- قلت له أني كويسة؟
- نعم وبيسلم عليكي وبيبوسك وبيقول لك أنه بيصلي لك.
- ها ييجي امتى طيب؟ وحشني قوي.
- هو بيقول إن المشـــاكل في المزرعة كتير قوي ومحتاج شـــوية وقت لكن مجرد ما يخلص ها تكوني أنت أول واحدة يروح لها.
- مرســـــي قوي يا أحمد... ما اتحرمش منك... كنت عارفه إن ما حدش ها يعرف يوصل لبابا غيرك.
- أرجوكي بقى أنت تسترخي وتنامي دلوقتي علشان لما يجي بابا يلاقيكي كويسة.
- حاضر... تصبح على خير.

*****

تمدد في سريره وقد ضاع النوم، واختفى الوسن، وحضرت الأفكار كقطيع خيول برية تركض في فضـــاء لا نهائي... لا يعرف هل يســـتغرب ما حدث أم يســـتوعبه؟ يتساءل:

"لماذا أنا؟ كيف حضـــرت في عقلها وهي في تيه المخدر؟ كيف اســـتطاع هذا العقل أن يستخلصـني دون البشر، ويضـعني في مصـاف أحب الناس، وأقربهم لقلبها، ويستحضرني لأوصل له رسالة مستحيل إيصالها؟"

تسلل ضوء النهار مستحياً من بين الستائر المدلاة فنهض متكاسلاً، ودخل الحمام وقضى حاجته، ثم وضع نفسه تحت شلال الماء الساخن لا يدري ماذا يفعل، خرج بعد فترة من تحت الماء، وارتدى روب الحمام، وجفف شعره، ومضى إلى المطبخ يصنع قهوته الصباحية وما أن انتهى حتى حمل الكأس الكبير الممتلئ ومضى إلى غرفة نومه، ليجد نفسه يرتدي ثياب الخروج، ويختار معطفاً ثقيلاً، وكوفية لفها حول رقبته، واحتسى قهوته، وخرج لا يلوي على شيء.

سار على قدميه في اتجاه الشاطئ، تلفح وجهه رياح البرد الشتائية، يبحث عن مكان يحتويه في هذا الوقت المبكر... سار كثيراً حتى عثر على أحد الأماكن التي ما زالت لم تغلق أبوابها منذ الأمس، أو التي فتحت مبكراً لسبب غير معلوم، فدخل وجلس مواجهاً صديقه البحر، متلذذاً بلفحات الرياح المشبعة باليود، يستنشقها كجائع دهر، وجد وليمة بلا موانع أو حراس.

مضى الوقت دون أن يشعر حتى انتبه على النادل يتحرك حوله كما لو كان يسأله أن يغادر أو يطلب مشروباً آخراً بعدما طال به الجلوس، فطلب منه قهوة مزدوجة، وأخرج هاتفه من جيبه، واتصل بسكرتيرة القسم الذي يعمل به، وأخطرها بأنه لن يحضر اليوم لتخبر الطلاب، وبعد أن احتسى القهوة شعر بالملل من المكان فنقد النادل حسابه، وغادر، ومضى يسير على الكورنيش على غير هدى.

تذكر فجأة أنه لم يتصل للاطمئنان على ماريا، اتصل بهاتفها، فأتاه صوت أخاها، فسأله عنها، فأجابه بأنها نائمة منذ الأمس ولم تستيقظ حتى الآن لكن الأطباء يقولون أن حالتها استقرت مع العلاج، شكره وأنهى الاتصال، وواصل السير دون أن يشعر بقوة الرياح التي تتقاذفه يمنة ويسرة.

وجد نفسه فجأة في سيدي جابر فتوقف للحظة ثم عكس اتجاهه وواصل السير لا يلوي على شيء، ولا يدري أين تأخذه قدماه كان مشوش التفكير بدرجة لم يعتدها منذ زمن بعيد، فاستمر بالسير غير عابئ بالرياح الباردة تلفح وجهه حتى وصل محطة

الرمل حين سمع رنين الهاتف وشعر باهتزازه في جيبه، فمد يده متكاسلاً وأخرجه، ولمعت عيناه دهشة حين رأى اسم ماريا وحين رد على الاتصال جاءه صوتها واهناً لكنه فرح... سألها عن حالها، فردت أنها استيقظت لتوها من النوم وأنه الوحيد الذي شعرت بالحاجة للاتصال به، شعر بدقات قلبه تتسارع، وكاد قلبه أن يتوقف وهو يسمعها تقول له: "أنا بحبك قوي يا أحمد." ثم تنهي الاتصال.

شعر للحظة أنه يسير بين السحاب، وشعر فجأة بالجوع، فقرر أن يذهب لكشك أم مروة في بحري، ويأكل دنيس مشوي، ورأى نفسه مثل بيكاسو، يمسك بالهيكل العظمي للسمكة بعد أن التهم لحمها، فابتسم، وغذ السير في طريقه إلى بحري.

*****

تسللت الأفكار لرأسه وهو في طريقه لتناول الغذاء لا يدري هل استحضرها عقله أم أنها حاضرة –فقط– أخرجتها مكالمة ماريا من جب الماضي، وغرفة التذكارات المنسية؟

"أنا حاضر غائب لا أتحمل نفسي ولا الوجود الفارغ، يحيط بي صمت خانق مرير؛ كما لو كنت ممثلاً على خشبة مسرح خاو، وكراسي فارغة بلا جمهور، ولا ممثلين والصمت حل محل الموسيقى.

لماذا تأذت حياتي؟

من تكون ماريا؟

هل أصبحت كل شيء؟

لم تكن شيئاً سوى ذكريات عمر مضى ونسيته.

لماذا نسيته، وأين ذهب كل شيء؟

من سرق الكل شيء هذا؟ من الجاني؟

أ هو الحب يطرق بابي في خريف العمر؟

ما هو الحب؟

أشر هو أم خير؟ ظلم أو عدل؟
إن كان خيراً فلمَ ضاع عمري دون أن يلقاني؟
وإذا كان عدلاً لمَ يجعلني مرتبكاً هكذا؟
إن لم يكن وليس أماناً ولا وفاءً... فما هو؟
أ أنا واهمٌ؟
هل أبني قصوراً من رمال؟

ها أنا أسير وحدي تتوارد في رأسي صور لا تُحصى كشريط سينما لا أستطيع أن أوقفه... تتزاحم الخيالات في مخيلتي لتعود للحياة كشـــيء أقوى من الموت أحاول قتله فيعود للحياة مرة أخرى."

وصل حيث أم مروة فأخذ مكانه، وجاءته مروة مبتسمة تمسح الطاولة، وتسأله عن طلباته، ليقول لها: "دنيس مشــوي زي كل مرة." فتمضـــي لإعداد طلبه بينما يعود ليغرق في أفكاره التي لم تنقطع.

أمضـى بعض الوقت ينظر لميناء الصـيادين، ويتطلع للأفق والبحر ولم يشـعر إلا بمروة تقول له: "بالهنا والشـــفا يا دكتور." فانتبه وتمتم يشـــكرها دون أن يعي ماذا ينطق، وأخذ في تناول الطعام بآلية وســـرعان ما شـــعر بالامتلاء، فنادي على الفتاة وأعطاها ثمن الطعام، ونهض سائراً لا تكاد تحمله قدماه حتى وصل إلى الطريق فأشار لأول سـيارة أجرة مرت به، وقال للسـائق على عنوان بيته، وتكومت نفسـه على نفسـه، ولم يشـعر إلا بالسـيارة تقف أمام منزله، فدفع للسـائق أجرته، وجرجر نفسـه بصـعوبة حتى وصـل لسـريره، فارتمى عليه بكامل ثيابه، وغرق في نوبة بكاء لم يعرف مثلها في حياته حتى اختطفه النوم.

*****

اسـتيقظ مجهداً يتناوب عليه شـعور بالجوع، وآخر بالامتلاء، فتوجه للمطبخ يعد لنفسـه كوباً من النسكافيه ربما يتغير مزاجه، وضـع حبات النسكافيه في الكأس، وترك

الماء يغلي في الغلاية الكهربائية، وحين سكت صوت الغلاية صب الماء ووضع بعضاً من الماء البارد، وأخذ الكأس وتحرك نحو المكتب ونقاط المشروب تتسرب من بين يديه دون أن ينتبه إليها، ولسبب لا يدركه تذكر أبناءه وكيف كان يهتم أن يقدم لهما وجبة الافطار التي يعدها بنفسه، ويتأكد من ذهابهما للمدرسة، ثم يتفرغ لتنظيف المطبخ بينما صوت شخير الزوجة الأم يصله من غرفة النوم يؤنس وحدته.

لاحظت بعينين كليلتين حبيبات سوداء منتثرة، فلملمها ووضعها في آنية خزف صينية موشاة بتنين متأهب للقتال بفم مفتوح ينفث النيران... انتبه إلى جلبة الشارع تأتي من النافذة المواربة، فنظر لساعة الحائط فوجدها تشير للثانية عشرة ظهراً... طارد ذهنه هاجس المرض اللعين الذي اختطف أباه وأمه، ورآه يحاصره في إحدى زوايا الغرفة، ويتجه نحوه على أطراف أصابعه بتؤدة بليدة حتى باغته من الخلف، وأحكم قبضته فوق رقبته، فصرخ صرخة مدوية لم يسمعها أحد، فانهار باكياً فوق المكتب.

جمع شتات نفسه، وأمسك بالهاتف، واتصل بصديقه الوحيد الدكتور كمال، واتفق معه على لقاء في عيادته التي تطل على ميدان حديقة الخالدين بعد موعد انتهاء العيادة... أكمل احتساء النسكافيه، وعاد إلى فراشه، واستغرق في نوم عميق استغرق جل النهار وحين استيقظ أحس بحاجته للاستحمام، فاستحم وجلس يقرأ حتى اقترب موعد لقاءه بصديقه، فارتدى ثيابه، ونزل واتجه للعيادة سيراً على قدميه.

*****

استقبله الدكتور كمال مبتسماً وهو يقول له أنه لن يستطيع استضافته بقهوة تماثل قهوته وعليه أن يقنع بما لديه في (الترمس) الخاص بالعيادة، وتوجها لشرفة العيادة المطلة على الميدان، وجلسا في المواجهة لا يفصل بينهما سوى طاولة صغيرة عليها (ترمس) القهوة وكوبين... جلس أحمد صامتاً مما دفع كمال لبدء الحديث...

- إيه يا أبو حميد... مالك؟ لا أسكت الله لك حساً.

- مفيش يا كمال يا أخويا... بس حاسس بحزن شديد.
- خير؟
- افتكرت أولادي النهارده والذكريات معاهم فجرت جوايا مشـاعر مؤلمة خلتني أبكي وبشدة.
- كويس أنك بكيت... ده تفريغ للشحنة النفسية اللي جواك.
- أرجوك يا كمال... أنا النهارده مش محتاج للدكتور النفسي اللي جواك... أنا جاي ومحتاج لصاحبي كمال مش الدكتور كمال.
- ياه... ده أنت جامد قوي.
- فاكر يا كمال أيام ثورة يناير لما كنا بنقعد هنا في نفس المكان ده ونراقب اللي بيحصل؟
- أكيد فاكر... ودي حاجة تتنسي.
- فاكر ميدان القائد إبراهيم كان هادي ازاي يوم 11؟
- صحيح... ومش عارف أفسر ده؟
- ما سألتش نفسك ليه الميدان ابتدا يتملا بع كده؟
- لا.
- مسألتش نفسك ليه اختيار ميدان القائد إبراهيم علشان يكون مركز للتجمع رغم إن فيه ميادين أكبر ولها شهرة تاريخية في التظاهر؟
- قصدك زي ميدان المنشية قدام البورصة؟
- بالظبط... ده كان مكان شبه رسمي للتجمع في الخمسينات والستينات وحتى في السبعينات لما اتحركت منه الناس لما ناصر مات.

- صحيح.
- وكمان عندك الميدان اللي جنب منه.
- اللي ورا الجندي المجهول.
- صح... ويدان فيكتور عمانويل في سموحة وأماكن تانية كتير... اشمعنى القائد إبراهيم وهو مكان مساحته محدودة جداً؟
- مش عارف.
- أنا أقول لك... الجامع يا دكتور... الجامع هو السبب.
- وإيه علاقة الجامع بمظاهرات الشباب؟
- الجامع ده من فترة كان بيتعمل مركز لنشاط الجماعة.
- الإخوان؟
- نعم... صلاة الجمعة... التراويح والتهجد في رمضان، وصلاة العيد، والاستقرار على أنه يكون مقر لعزاء كبار الشخصيات.
- قصدك...
- قصدي إن المكان ده اتشغل لما الإخوان قرروا يشاركوا في اللي بيحصل في ميدان التحرير في مصر.
- تفسير معقول... بس أنا عايز أعرف آخر أخبارك... عامل إيه في موضوع ماريا؟
- أنا مش عايز اتكلم عن ماريا.
- ليه بس؟

- من غير ليه زي ما بيقول الجنرال الدكتور الموســـيقار... أنا عايز أنســـاني... اتجاهلني... عايز أشغل دماغي دلوقتي بحاجة عامة... تاريخ... سياسة... عايز رأيك أنت النهاردة بعد ما اتغيرت الأيام ومرت مياه كثير من تحت الجسر... أنت يا كمال يا عواض شايف إيه؟
- أنت قلت مش عايز الدكتور النفسي، وأنا تحليلي مرتبط بالطب النفسي.
- مدام مش ها تعمل علي أنا تحديداً دكتور... خد راحتك.
- شوف يا سيدي... أنا كلامي ها يكون عن مبارك.
- واشمعنى مبارك بالذات؟
- لأنه محور اللي حصل وأنا مش ها اعرض عليك رأي شخصي لكن أنا من خلال متابعتي للأوراق العلمية لقيت تقرير سري للمخابرات الأمريكية عن الحالة النفسية للرئيس المخلوع تم تسريبه ضمن 24 ألف مستند.
- أنهي مخلوع؟ مرسي والا مبارك؟
- مبارك يا أخي... ركز معايا.
- ماشي... والوثائق دي مصدرها مين؟
- دي وثائق اعترف الجنرال وليام جي لين نائب وزير الدفاع الأمريكي بسرقتها.
- أنت ليه بتهرب من الكلام عن نفسك يا أحمد؟ ليه مش عايز تفهمني مالك؟
- وبتقول إيه الوثائق دي؟
- برضه... يا سلام يا أخي على عندك... ماشي... بتقول إن مبارك حسب تحليل شخصيته من علماء نفس متخصصين له عدة صفات تلخصت في كونه عنيد،

بليد الفهم، ومتضـخم الذات... يعشـق الكذب، شـكاك بطبيعته، ومتغطرس فارغ، ونمام، يعشق اغتياب الغير وغير متدين، يشعر بالدونية وسهل الانقياد.

- هههههههه كل ده؟
- اعترف الجنرال الأمريكي إن CIA كانت بتقيم الحالة النفسـية والسـلوكية لمبارك 4 مرات سنوياً وضعوا خلالها لمبارك نحو 117 تقرير.
- معقولة؟
- مصـــر مهمة جداً بالنســـبة للمصـــالح الغربية بحكم موقعها الجغرافي وتأثيرها الحضاري يا دكتووووور.
- ماشي... كمل كلامك... بس كانوا بيجيبوا المعلومات منين؟
- تقارير ال CIA عملتها أجيال متعاقبة من أطباء وعلماء نفس أمريكيين وأوربيين أمضـوا سـاعات طويلة في تحليل ودراسـة تقاريره الطبية المسـروقة من الجهات المصـرية والغربية اللي اتردد عليها للعلاج أو عمل فحوصـات دورية طول حكمه سواء كانت إشاعات دماغية وصدرية وحتي تحاليل البول والبراز.
- هههههههههه.
- الناس دي مش بتلعب يا أحمد.
- أكيد... وإيه تاني؟
- درســوا كل حركاته من تقارير العملاء الأمريكيين وفي أفلام تســجيلية والأخبار اليومية ولقاءاته الدبلوماســية وزياراته الدولية والمحلية وتقارير الخارجية الأمريكية عنه ودراسة خط يده.
- دول ما سابوش حاجه.

- فيه تقرير وضـــعه اتنين من العلماء الأمريكان (بيتر روزنفيلد) من جامعة (نورث ويسـترن) بولاية شـيكاجو والعالم (ديفيد إيجلمان) خبير علوم الدماغ والتصـرفات الإنســـانية من جامعة (بييلر) الطبية بولاية تكســـاس يؤكد أن علماء المخابرات الأمريكية ما قدروش يحللوا نفسـية الرئيس جمال عبد الناصـر والسـادات وقت ما كانوا عايشين زي ما بعملوا مع مبارك.
- وإيه السبب؟
- العلوم الحديثة.
- وحددوا الفرق بين التلاته؟
- اكتشفوا فروق نفسية كبيرة، أكدت أن مبارك كان الأضعف نفسياً.
- مش مبالغ فيه الكلام ده؟
- لا.. لأنهم حطوا مبارك في زياراته المتعددة لأمريكا في اختبارات نفســـية متطورة للغاية من غير ما يعرف لا هو ولا اللي معاه أن رئيسـهم يخضـع لتجارب علمية نفسية لكشف ما يدور بعقله.
- وده اتعمل إزاي؟ والا ما عندكش فكرة؟
- التقرير اللي جه فيه الكلام بيقول أنهم كانوا بيعزموه يتفرج على أفلام تســـجيلية بحضـــور الرئيس الأمريكي في البيت الأبيض وكان فيه كاميرا على المكان الذي ها يقعد فيه بتسجل له أفلام كشفت عن شخصيته.
- معقولة؟ وأفلام إيه دي اللي تخليه يخر اللي جواه؟
- كانوا بيختاروا أفلام معينة والتقرير بيعترف أنهم كمان فبركوا أفلام بتعرض صـور معينة لأشخاص من معارفه وشخصيات عالمية بتخليهم يعرفوا من رد فعل حدقة

عينيه وانفعالات وجهه حبه أو كرهه... احترامه أو احتقاره للشـخصـية صـاحبة الصورة.

- والنتيجة؟
- تخيل أنه كان بيكره ويحتقر عدد كبير من زعماء ورؤسـاء العالم منهم جيمي كارتر، وجورج بوش، وصدام حسين، وعلي عبد الله صالح، والقذافي وتصدق أنه كان بيكره الرئيس جمال عبد الناصر والسادات!
- بتفكرني برواية الأخ الأكبر... حاجة تخوف.
- كانوا بيعرفوا تفكيره في الموضـوعات بنسبة أكتر من 74% بطريقة علمية حقيقية حتى نوعية السلاح اللي ها طلبها كانوا يعرفوها قبل ما يطلب.
- إزاي الكلام ده؟ بيفتحوا المندل والا بيضربوا الودع؟ ده كلام يمخول.
- كانوا بيعرضـوا نوعيات معينة من الأسـلحة ويسـجلوا ردود فعله ويحللوها علمياً ومنها يتعرفوا علي اللي ها يطلبه.
- يا ساتر... للدرجة دي؟
- وأكتر يا أحمد... التقرير كشـف أنهم وضـعوه هو وغيره علي جهاز ركبوه في جهاز الترجمة الفورية بيسجل أشعة موجات دماغية اسمها (بي 300) ومنها كانوا يدرسوا شخصيته بشكل أعمق بعلم معروف باسم (القوانين العصبية) NEUROLAW.
- طيب والتقارير الطبية اللي قلت انهم كانوا بيجمعوها استفادوا منها ازاي؟
- التقارير دي كشفت أسرار مبارك (الشخصية والجسد) لما حللوا الحامض النووي له لقبوا جين معروف باسـم MAO-A معروف أنه (الجين المقاتل) ووجوده عند

شـخص معناه أنه شـخص عدواني، مش بيسـتجيب لمادة السـيروتونين المهدئة للإنسان فبيفضل عدواني ممكن معظم حياته.

- يعني مختل عضوياً ونفسياً؟
- للأسف نعم... لأن التقارير أثبتت أن مبارك كان مريض بمرض نفسي يُسمى ITS ALL ABOUT ME بيخليه شـايف نفسـه أهم شـخص في الدنيا فيحطم غيره علشـان يتمتع بإحساسه أن هو الأهم.
- أكيد... تاريخه بيقول أنه مستعد لقتل أو الاشتراك في قتل غيره.
- المخابرات الأمريكية اسـتفادت من ده وجندته من غير ما يحس في التخلص من صدام حسين.
- طبيعي لأن مبارك كان شايف صدام عدو بيحرمه من الصدارة والسيادة في العالم العربي.
- الأمريكان رصدوا كمان جين وراثي بيخليه يحس دايما بالقلق والخوف استفادوا من القلق ده أنهم شـجعوه للجوء لهم علشـان يشـعر بالأمان وسـاعتها يوفروا له الأمان مقابل تنفيذه لأمر معين فكان ينفذه من غير مناقشـة والطريقة دي نجحت معاه قوي.
- هههههه اللي كان فاهم نفسـه (مبارك الإمبراطور الملك) كان عروسـة لعبة في إيدين الأمريكان.
- نعم وكان غير متدين ومصـر بالنسـبة له مش موجودة لأنه دوبها في شـخصـه، وكل مصر أصبحت هو.
- كان عايز يورث التكية دي لابنه.

- بالظبط... عايز مصر ملكية، وفكر في التوريث وخطط لكده.
- الله لا يسامحه هو واللي زيه... دمروا بلد من أعظم بلاد الدنيا.
- الفساد يا صاحبي... اللي أثبتت صورة أشعة مقطعية أن في واحد من فصوص مخه جزء يثبت ميله للإجرام ومنه أمكنهم تفسير حجم الفساد طول حكمه.
- الغريب إن الراجل ده كان سهل الانقياد والخضوع لبعض الشخصيات زي زكريا عزمي وجمال عبد العزيز وغيرهم.
- اتكلمت التقارير عن الحالة السيئة دي كمان وقالت عن الشخصين دول تحديداً "كان يمكنهم لعب الكرة بهذا الرجل بسبب مرضه".
- زي ما بيقول عمنا صلاح عبد الصبور "كيف ترعرع في وادينا الطيب هذا القدر من السفلة والأوغاد" إزاي بلد زي مصر يحكمها تلاتين سنة واحد بطئ الفهم، يكره الإسلام والعرب وعنده بارانوايا بتحسسه أنه فوق العالم كله... فارغ وقصير النظر شايف إن الرؤساء اللي سبقوه أقل منه، معاه أرقى درجات العلوم العسكرية ورغم كده جاهل، مش بيحب القراءة، بيعشق المال والسلطة، ومش بيفهم نهائياً ولا مهتم بالأمن القومي، والوطن بالنسبة له مراته وعياله.
- ودلوقتي مش ها تقولي مالك؟
- لا أنا ها امشي وها ابقى اكلمك بعدين.

******

نزل من العيادة على السلم ولم يركب المصعد، وسار بجوار سور كلية الطب معتزماً التوجه لمنزله سيراً على الأقدام إلا أن قدميه ساقتاه دون إرادة منه إلى المستشفى الذي ترقد فيه ماريا!

دخل المستشفى وتوجه للاستقبال على استحياء، وسأل موظفة الاستقبال عن ماريا، فابتسمت هاشة في وجهه قائلة أن حالتها تحسنت، وتم نقلها من العناية المركزة لغرفة أعطته رقمها موشحاً بابتسامة موظفة استقبال محترفة... صعد السلم حيث توجد الغرفة، وطرق الباب بهدوء ففتحته أمها ووراءها شقيق ماريا الصغير الذي سارع بالترحيب به.

بدا عليه الارتباك، وأخذ في الاعتذار للأم عن الإزعاج في الوقت الذي لاحظ فيه نظرة ماريا وابتسامتها التي تشي بالفلق الساحر بين ثنيتي أسنانها... لم ترد الأم بينما لمعت عيناها بريق شك غير متخف، فتوجه لماريا ومد يده لها فصافحته معتذرة عن عدم قدرتها على الجلوس، فردد بعض الكلمات الخجلة تعبر عن اعتذاره عن الحضور بلا موعد وأنه فقط جاء للاطمئنان على ماريا بعد محادثة أخيها له ومحادثته معها، فنظرت الأم لابنها نظرة استفسار تشي بقلق أو غضب لم يستطع أحمد تفسيره، لكنه لاحظ إشارة ماريا له أن يقترب منها، فاقترب منها فطلبت منه أن يعطيها أذنه لتقول له كلمة خاصة، ففعل وسمعها تهمس له: "أنا بحبك موت يا أحمد."

ارتبك وابتعد كما لو مسه مس من الجن، واعتذر من الأم وابنها، وغادر فيما يشبه الركض.

*****

جاءت الممرضة ووضعت العقار المهدئ في عبوة المحلول وما هي إلا لحظات حتى غابت ماريا في نوم عميق وأخبرت الممرضة الأم وابنها أنها لن تستيقظ قبل الصباح وأن وجودهما لن يفيد في شيء فأشارت الأم لابنها واستندت على ذراعه وعلى باب المستشفى استوقفا سيارة أجرة، توجهت بهما للبيت.

*****

جذبت ابنها من ياقة قميصه وهي تلقي بنفسها على أقرب مقعد فور دخولها من باب الشقة، ونظرت في عينيه بغضب وسألته:

- مين الدكتور أحمد ده يا بغل؟ ويعرف ماريا منين؟ وأنت تعرفه ازاي؟ وليه ما قلتليش؟ انطق.
- معقولة مش فاكراه؟ كنت فاكرك عارفاه.
- وها اعرفه منين يا حمار؟
- بطلي شتيمة بقى... إيه... ما تعرفيش تتكلمي من غير شتيمة؟
- لو ما نطقتش ها انسل الشبشب على دماغك.
- أنت بجد مش عارفة الدكتور أحمد؟
- وها أعرفه منين يا ابن الخايبة؟
- ده ابن أخو عم عبده جارنا في بيتنا القديم في العطارين.
- بجد؟ وإيه اللي لم الشامي ع المغربي؟
- ما هو يبقى أستاذ ماريا في الكلية.
- وهو أستاذ الكلية بيروح لتلامذته العيانين؟
- لا.. أنا اللي قلت الله.
- وإيه اللي يخليك تقول له يا معرص؟ أنت ما تعرفش أختك؟
- اسمعي بقى وبطلي شتيمة... مش كده... وبعدين مالها أختي؟ أختي زي الفل... ده بدل ما تحني عليها في عياها؟
- بطل فلسفة واحكي لي كل حاجة بالتفصيل يا ابن الخايبة.

أخذ يحكي لها عن مكالمة ماريا، وتصـــورها أن الوحيد القادر على الاتصـــال بأبيها هو الدكتور أحمد وهي تستفسر عن كل كبيرة وصغيرة حتى اعتصرت منه كل ما يعرف.

- منه لله اللي جابكم... ما ريحنيش وهو عايش، ومشـــيلني الهم وهو ميت... منه لله... الله لا يرحمه.

*****

القدر يقرع الأبواب

***

كما لو كان يمارس طقساً مقدساً، صف سيارته بحرص في ساحة الانتظار الخاصة بنادي أساتذة الجامعة، ولم يلاحظ سيارة صديقه كمال، ومضى سائراً لمكانه المفضل ليجده بانتظاره، فهش له سعيداً فقد اغتالت الوحدة روحه، وكان بأمس الحاجة لرفقة حقيقية وليس هناك من هو أقرب لنفسه من كمال.

سرعان ما جاء النادل فأعطاه علبة البن الخاص به، والتفت لصديقه الطبيب، وحكا له بلا مقدمات الاتصال التليفوني بينه وبين ماريا بحماس لم يعتده في نفسه من زمن، واتبعه بقصة زيارته لها، ولم يوقفه عن الاسترسال في الكلام سوى النادل وقد جاء بفناجين القهوة تفوح رائحتها المميزة، فمد يده يحتسي من فنجانه بينما وضع كمال فنجانه أمامه وأخذ ينظر إليه باستغراق لاحظه، فسأله:

- بتبص لي كده ليه.
- مفيش حاجه... عادي.
- لأ... فيه حاجة واقفه ف زورك.

نظر له كمال ملياً ثم تحدث ببطء...

- أنا شفت ماريا وكلامك والورق اللي بعته لي أكد لي إن اللي شفتها هي ماريا.

نهض أحمد كما لو أن جناً مسه، وشعر بأنه عار في وسط المدينة، ينظر الغادي والرائح لعورته...

- بتقول إيه؟ شفتها فين؟ وامتى؟ وعرفتها ازاي؟
- اقعد وما تبقاش أهبل... أنت ناسي إن أنا دكتور استشاري؟
- وإيه علاقة ده بكلامنا؟
- أنت عارف إن إسكندرية صغيرة، وأنا باشتغل في كذا مستشفى خاص علشان أعرف أعيش... زي العوالم كده... با انحت... اقعد خلينا نعرف نتكلم.

جلس شاعراً بصعوبة في التنفس ونبض قلبه يتسارع.

- لو ما ابتدتش تهدى ممكن تجي لك أزمة قلبية... أهدى.
- قولي شفتها امتى وازاي؟
- اتصلوا بي من المستشفى وقالوا لي إن فيه حالة حرجة ومحتاجين أشوفها ضروري... رحت ولقيت الحالة في شبه غيبوبة، وعرفت أنها جت لهم في المستشفى وقلبها واقف، فعملوا لها إنعاش قلبي ورئوي، ورجعت للحياة تاني، ولما حكيت لي أنت دلوقتي عن مكالمة التليفون، ربطت بين الورق اللي بعته لي وبين حكايتك وبين المريضـــة اللي شفتها ما كانش صعب أني أعرف أنهم حاجة واحدة.
- وتشخيصك إيه للحالة؟
- الحالة متشــخصــة من زمان ومتشــخصــة صــح... وهي عارفة حالتها، وكتبت عنها بوضوح في الورق اللي سبق وبعته لي أول مرة.
- وأنت عملت لها إيه؟
- ولا حاجة... غيرت لها بعض الأدوية وزودت أدوية تانية.
- وها تخف؟
- دي حاجة بإيد ربنا.
- وده برضه كلام طبيب استشاري وأستاذ في الجامعة؟
- أنا عارف دماغك... بس خد بالك يا بني آدم... العلم مفيش فيه يقين... فيه نظريات واحتمالات.
- قريت الورق التاني اللي بعته لك؟
- أكيد طبعاً.
- وإيه رأيك؟
- أنا اتأكد لي إن توصــيف الحالة بأنها شــيزوفرانيا تشــخيص غلط زي ما قلت لك المرة اللي فاتت.
- أمال تشخيص الحالة إيه؟

- مرض نادر اسمه متلازمة تعدد الشخصيات Multiple Personality Disorder أو Dissociative Identity Syndrome وبالمناسبة فيه فيلم عالمي مشهور من الأفلام النفسية اتناول المرض النفسي ده وفيه حالة تشبه شخصية ماريا أسمه وجوه حواء الثلاثة The Three Faces of Eve.
- يعني إيه؟
- يعني إيه إيه؟ با اقول لك الفيلم ده بيحكي عن متلازمة تعدد الشخصيات.
- وده علاقته إيه بماريا والورق اللي بعته لك؟
- لو فاكر البطلة في فيلم بئر الحرمان كان بيحصل لها إيه ها تلاقيها بتفصل عن واقعها... الصبح بنت رقيقة... في الليل واحدة لعبيه.
- وده من إيه؟
- نتيجة عقدة نفسية من الطفولة سببها علاقة أبوها بأمها.
- قصدك عقدة الكترا؟
- بالظبط... البنت بتتقرب لأبوها وتحس بالغيرة من أمها لأنها العقبة اللي بتمنعها من الاستحواذ على الأب.
- فهمت... بتتلبس شخصية أمها وتحس ناحيتها بالعداء في نفس الوقت لأنها بتنافسها في حب الأب... فهمتك.
- مصطلح عقدة الكترا يبين تعلق البنت من غير وعي بأبوها وغيرتها من أمها... ورغم أنّ فرويد هو صاحب فكرة العقدة بس كارل يونج هو اللي سماها عقدة الكترا... جاب المصطلح من أسطورة الكترا اليونانية.
- ممكن يعني الشخصية اللي في الورق تتحول وتبقى شخصية تانية؟
- هي بتعمل ده بالظبط... وممكن تبقى أكتر من شخصية في أكتر من وقت... وبيأكد ده حكايتك عن حالة الطفولة اللي أنت شفت ماريا بتعيشها.

ساد صمت ثقيل بين الصديقين لا يقطعه إلا صوت رشفات القهوة... نهض أحمد فجأة ليغادر فأمسك بيده كمال قائلاً:

- أنت مالك؟ فيك إيه؟
- مش عارف يا كمال... مخنوق.
- اتضايقت أني عرفتها؟
- مش عارف.
- حاسس أنك عريان؟
- أرجوك... كفاية كده... ها اتصل بيك لما أكون في مود أحسن من كده... سامحني دلوقتي... عايز أكون لوحدي.
- أوكي... مع السلامة... بس أرجوك طمني عليك.
- حاضر.
- وعد؟
- وعد.

*****

مضت الأيام موحشة يغالب فيها اضطرابه الذي تحول إلى ارتباك في النوم، والعادات الغذائية، وفقدان ملفت لعنايته بأناقته التي هي محط إعجاب الزميلات والطالبات، وحسد الزملاء، وسخرية الطلاب.

انتبه في ليلة من ليلات أرقه ألممض على صوت هاتفه، فلمعت عيناه، وانتشت روحه حين شاهد اسم ماريا، وحين فتح الاتصال جاءه صوتها واهناً:

- ازيك يا أحمد... ما بتتصلش ليه؟
- مش عارف.
- مش عارف إيه؟
- مش عارف ليه مش باتصل.

- طيب... ها ابقى أنا اللي ها اتصل بيك.
- جميل.
- أنت اللي جميل بجد.
- مش عارف أقول لك إيه... خدي بالك من صحتك أرجوكي.
- حاضر بالمناسبة أنا ها اخرج من المستشفى النهارده.
- صحيح... ألف حمد الله ع السلامة.
- تسلم... أشوفك على خير... الممرضة جايه الظاهر علشان إجراءات الخروج... باي دلوقتي.
- مع ألف سلامة

انتهت المكالمة، فأحس بنشوة ونشاط غير عاديين، وشعر بجوع ونهم شديدين، فقرر أن يكافئ نفسه بأكلة سمك شهية... نهض نشيطاً وارتدى ثياب الخروج واتجه لجراج العمارة، وأخذ سيارته، ومضى إلى مطعم سمك شهير.

*****

صار يتلقى مكالمة يومية أو أكثر من ماريا حتى أصبح حديثها آلة زمن، تعيد له ذكريات طفولة وشباب أول حين كان يسمع خالاته وعماته وأمه يتحدثن دون حساسية ولا خجل عن كل الأشياء بمسمياتها – التي أصبحت مستهجنة الآن– فقد كن يعتبرن الصدق في القول موضوعاً غير قابل للنقاش، وادعاء الاحتشام نوعاً غبياً من أنواع الكذب والنفاق.

أصبح مزاجه مرتبطاً بسماع صوتها، تحدثه عن أي شيء وكل شيء، فإذا تأخر اتصالها توتر وأصابه غم، ليصبح ودوداً نشطاً بعد أن تتصل به لتحدثه عن أطفالها، وجيرانها، وما تعده من طعام، وحين تعود لأحداث عمرها الأولى، لتحكي ما هو طبيعي وما هو مدعاة للخجل دون أن تتوارى وراء أخلاق الطبقة المتوسطة الزائفة...

يبشره رنين هاتفه بيوم رائق صاف حين يوقظه مصحوباً بصورتها عندما تجد وقتاً في الصباح بعد ذهاب أولادها للمدارس وزوجها للعمل.

تعود على لقاءها تنتظره عند سيارته في موعد انتهاء عمله، ليصطحبها ويجلسا في ذات المكان الذي جلسا فيه معاً أول مرة؛ حيث تستطرد في حديث طويل عن أي شيء، وكل شيء وهو يستمع باندهاش من نفسه هو الذي لم يكن أصعب عليه من الاستماع لحديث غير ذي هدف أو منطق.

أصبح الاستماع إلى صوتها في التليفون ولقاءها كل فترة وقوداً لروحه، وأصبحت هواءً يتنفسه، ويختنق حين يغيب.

*****

كان مشغولاً في مكتبه بمراجعة رسالة دكتوراه لأحد طلابه حين فُتح الباب، فرفع رأسه غاضباً من هذا الذي اخترق خلوته بلا استئذان، لتصافحه بسمتها المميزة وهي تلقي عليه تحية الصباح، وتمد يدها له بورقة وحيدة قائلة له أنها انتهت من كتابتها صباح اليوم، مضيفة بضحكة خافتة أنها صنفت نوع النص لتثبت له أنها طالبة ذكية... وضعت الورقة على مكتبه، واستدارت مغادرة، تاركة عبير عطرها المميز يملأ الجو، فترك ما بيده وأمسك الورقة، وأخذ في قراءتها.

*****

هي وهو والبحر

قصّة قصيرة جداً

بقلم: ماريا القبطية

قالت وعيناها مصوبتان لعينيه:

- أترافقني؟

أجابها:

- نعم.
- دون أن تعرف إلى أين؟
- دون قيد أو شرط.

ابتسمت وقالت:

- ألا تخشى الغرق، أو الاحتراق، أو أن تهوي؟
- مناي غرقي في أمواج روحك، واحتراقي بشهب عشقك، والصحو محترقاً بحبك.

دفعتها روحها العابثة للسّؤال:

- وماذا لو ضاع منا الدّرب يوماً؟
- ننحتُ درباً آخراً فأنتِ قِبلتي.

تهادى إليها الحلم بساطاً موشّى بترانيم الرّوح، فلم تتردّد، ورتّل قلبها "اليومَ تمت نعمتي ورضيتُ بالعشق ديناً." وبادرته:

- أحملني نجتاز البحرَ فقد سئمتُ حياتي.
- أنا مجدافك.
- لا صبر لي على حياة هي موت بلا دهشة.
- وأنا لا حياة لي دون جذوة عشقك.
- فلتكن لي.

- كوني قمري الذي لا يغيب.
- أنهكتني الأعاصير بين جوانحي، فكن بحري الذي لا يغدر.
- سئمتُ غربتي، ويغتالني خرسي.
- أسمع داخلك صهيل نزف رّوح لا تكف عن الصراخ.
- ماذا أنتظر؟
- أن نرحل... سيهدينا البحر فرحاً، يجعلك ملكي المتوج وأنا ملكتك المطيعة.
- سأعبر البحر، واسري معك لسماوات حب وعشق لازوردي... ألستَ حبيبي؟

لم تنتظر ردّا وجذبته إليها وغابا في اليمّ.

*****

وجد نفسه يتنفس بصعوبة ما أن أنهى قراءة النص، وأحس بالعرق يتفصد من جبينه، وحرارة جسده ترتفع رغم برودة الجو... فك بطة العنق، وتنفس بعمق، وقرع الجرس فجاءه الساعي فطلب منه أن يعد له كوباً كبيراً من القهوة بلا سكر، واسند ذراعيه على ذراعي المقعد حين خرج الساعي، وألقى بثقل ظهره للوراء وأغمض عينيه محاولاً استعادة اتزانه... لم يشعر بالساعي يطرق الباب، ويدخل، ليضع كوب القهوة، ويغادر في هدوء من يعرف طباع رئيسه.

نبهته رائحة القهوة فابتسم، ومد يده للكوب، وأخذ يرتشف منه بتلذذ وعقله موزع بين ما قرأه من أقصوصة ماريا، وبين ما يراجعه من أوراق الدراسة العلمية... بذل مجهوداً كبيراً للتركيز، ونجح بالفعل وانشغل بالعمل حتى أنجز الجزء الذي كان قد قرر الانتهاء منه اليوم، ونهض من على مكتبه، واستدعى الساعي لإغلاق المكتب بعد تنظيفه، ومضى لموقف سيارته، ليجدها بانتظاره... ابتسم وهو يفتح لها باب السيارة، وتوجه بها دون كلمة حيث تعودا الجلوس على الشاطئ؛ غير عابئين برياح الشتاء أو برودة الطقس.

طلب لها الكابتشـينو بطعم البندق الذي تحبه فابتسـمت وقالت أنها تريد عصـير البرتقال اليوم، فطلب لنفسه قهوة اكسبرسو مزدوجة مع البرتقال، وإذا بها تبادره بالسؤال:

- عجبتك قصة ماريا القبطية؟
- جداً... لكن ليه اخترتي اسم ماريا القبطية؟
- مش يمكن با اتبارك بالسيدة ماريا القبطية أم إبراهيم؟
- مش ممكن شقاوتك... ماشي.
- ما قلتليش برضه... عجبتك القصة؟
- هايلة... كتابة مختلفة تماماً عن الورق التاني.
- قصدك الاعترافات؟ هههههههه. يمكن علشان بحب.
- بجد؟
- هو إيه اللي بجد؟
- أنك بتحبي.
- ليه؟ أنت مش حاسس؟

غمرهما صمت للحظات ثم طرأت له فكرة فقال لها:

- إيه رأيك كل ما تكتبي نص جديد ها أرد عليكي بنص من عندي.
- واااااو... هايل.

نظرت لساعتها ثم قالت:

- معلش يا أحمد لازم أمشي... الولاد ميعاد خروجهم من المدرسة قرب.

نادى على النادل، ودفع له الحســـاب ونفحه إكرامية كبيرة، ثم قاما وغادرا... لم يمض يوم إلا وبريده الإلكتروني يحمل له رسالة منها.

*****

كتبت ماريا:

غاب عنها غياباً طويلاً هي تعلم جيداً أنها سببه، وأنها هي بنفسها من رغبته عنها، وأبعدته فحرمت نفسها؛ لكنها لم تملك لا رغبة ولا شجاعة الاعتراف بالخطأ، وكان لديها لكل سؤال جواب، ولكل فعل تبرير، ولم يسعها مع العناد سوى أن تنطوي على نفسها حتى جفت روحها، وذبلت.

احتضنته بلا تردد يوم عاد، ونست بكل صدق أيام الغياب، وذابت فيه، وأشرعت له كل أبوابها بسماحة وحب حين احتواها.

انتشت وأخذت في لعنه فابتسم... بدأت تلومه، وتنفي عن نفسها فعلها، فتجمد، وشعرت به في أحضانها يبتعد، والنسغ الذي سرى بوجوده في عودها ينسحب، فشحبت وجمد الدم في عروقها، وتوقف الزمن وسكن البدنان.

ضربتها صاعقة الوعي لثانية، فأحست بفارق الجفاء والجفاف عن الرواء والبهاء، ونادتها الحياة أن تتكر النكران، فبكت واعترفت له، وعاد الإيقاع بينهما، وارتفع النسغ في عروقها، وانتشت بالرواء.

*****

رد قائلاً:

جلسا يتعاتبان وقد أنهكته بغيرتها... حين قال لها "أحبك ولا أريد غيرك." ردت قائلة:

حب بلا غيرة يفقد لذته.

رد عليها قائلاً:

الغيرة نار تحرقنا كلانا.

هي نار موقدة وما ادراك بلهيبها تشتعل في قلب كل أنثى عاشقة.

تحولها لنمرة مفترسة في مشاعرها... متوحشة في عواطفها وحبها.

هي سلاحها للحفاظ على رجل صار فيها... يمرح بين كريات دمها.

غيرتك تتخطى الغيرة فتحاصرني في كل أمر.

هذه الأنثى ذاتها التي تغار عليك... تعشقك ومستعدة أن تخسف الأرض بك أيها الرجل إذا ما شمت رائحة خيانة في كيانك الذي تعبده.

لكني أحبك وغيرتي عليك لا تشـــبه غيرتك علىّ، ولا تســـجنك كما تســـجنني غيرتك.

غيرتي دافعي للارتباط بك، وبدونها أفقد وجودي كامرأة.

لكن غيرتك لا تقتصر على بنات جنسك بل تتعداهم لتحاصرني.

نعم... فغيرتي تجعلني قادرة أن أكفر بك لحظة اتيقن أنك لست نجماً يدور في فلكي.

ثقي بي فأنا أحبك ولا أريد غيرك.

ابتسمت في رضا وأشاحت بوجهها عنه، ومضت بعيداً تتبختر في دلال أوجع قلبه المتيم.

*****

كتبت ماريا:

كلما احرقني حرف من شفتيك صرت رماداً حتى يأتيني حرف آخر من عينيك فيُحييني من جديد... تتسارع حروف جسدك تهطل على جسدي مطراً، يُخصب عطش أرضي... ينتصب حبي تاجاً على مفرقك... تتسطر النشوة عقداً على صدري فأُصبح أجمل... تعيد حروفك إحراقي في آتونك السرمدي، فلا ينتهي موتي ولا بعثي.

*****

رد قائلاً:

أحلم فأظن أني أغط في نومي وأنا مستيقظٌ يراودني ما يرى النائم... كلهم حولي نيام يظنون أنفسهم يقظى!

كيف ناموا؟

لم لا يأرقون؟

أهفو لنوم بلا سُـــهد ولا أرق... لا يمزقني حلم يراه فيه قلبي الجريح يمتطي حصاناً خائناً امتطاه من قبله سادات فمات.

يُشـعل خوفي النار في بدني، فأخاطب ليلاً به نجم وحيد ملامح سـحره في وجه معشوقتي التي ملامحها نار فاحترق.

*****

كتبت ماريا:

"تأتيني كل مساء على البعد حلماً، تعزف ألحانك فوق ضـلوعي، فأتوسد أنغام حبك قصيدة تشاطرني الوسادة فـــ..أنااااااااام، وأنا بين أحضانك غير مصدقة نفسي، فاستيقظ، وأعجز عن النوم، وأتمناك جنيناً في رحمي.".

*****

رد قائلاً:

امتلأت بك وأنا بين شـفتيك تهمين بالتهامي... أحســســت بســعادة غامرة إذ تبتلعيني... أحســـســـت بدفء داخلك يغمرني كما لو كنت يونس في بطن الحوت... غمرني شعور تام بالأمان وأنا فيك وأحسست بك داخلي... حين احتضـنتك، شعرت بجسـدي يتلاشـى ممتزجاً بوجودك، وتخلق مدار سـحري حين ملنا معاً... فطفنا سـوياً وكنا المسرى والساري، وتسامينا... فصرنا دخاناً... وذبنا في الملكوت الأعلى متحدين بالكون، وأفضـيت إليك وأفضـيت إليّ حتى سـكن منا الخافقين، ونظرت في عينيك، فرأيت لؤلؤتين محبوستين بين المقلة والجفن.

*****

كتبت ماريا:

أحبك تهمس بأذني... تداعبني وأنت تراقصـــني... أريدك عاقلاً مجنوناً... طفلاً كبيراً، أعيش كل الحياة معك، وأعدك أن أكون لك كل النسـاء؛ فقد عشـت حياتي كائناً مائياً دفعت دفعاً للاغتراب والهجرة، سـخرت الرمال من روحي، فضـاعت من رأســي

الاتجاهات، وحاصرتني الجبال، وصرتُ حماماً زاجلاً تاه عن دربه، فرجعت ركضاً وأنا غريبة مختلفة، وقطعت آخر حبل يصـــلني بالغربة... عدت للشـــاطئ الذي أعرف، وصرت سمكة متعبة في أحضان الموج، ولم أعرف للراحة معنى إلا في شباكك.

*****

رد قائلاً:

يعرف البحر كم مر بالمدن والواحات وهو يربت على ســـيقان المنازل قبل أن يصل، ولا ينسى أولئك الذين غاصوا في طهره، ولبسوا ثياباً تُشبه نقاءه، ولم ينس النهر رفيق العمر الذي خانه الرفاق، وأرضاً تخضر حين تلمسها أنامله، وعصاه التي تتحول شـجراً كلما ألقى بها؛ حيث كفرت –كما كفر– بالعصـي التي تلقف ما يصـنع، ويتذكر إذ هو يسـعى وطناً للشـهد مذاقه، فيصـرخ صـرخة تنشـق لها السـماوات؛ لكن الرفاق صموا، ولم يسمع صرختة بشر.

*****

استيقظ متكاسلاً صباح الجمعة، وارتدى ثيابه، وشـــرع في الخروج فإذا بطرقات خافتة على الباب... فتح متباطئاً، وفوجئ بماريا تندفع إلى داخل الشـــقة، وقف بلا حركة، بينما قالت بصوت متهدج:

– اقفل الباب من فضلك.

تعثرت الكلمات فغمغم...

– أهلا وسهلاً.

كررت كمن على رقبتها سكين :

– اقفل الباب من فضلك.

جلست، فاستجمع نفسه وأغلق الباب وهو يقول:

– خير؟ إيه الحكاية يا ماريا؟

تنهدت وبدلاً من أن تجيب ابتسمت ابتسامتها الساحرة... كان مدخل الشقة معتماً، مد إصبعه وأضاء النور لكنها شهقت مع سطوع الضوء:

- لا اطفي النور من فضلك.
- مش معقول أسيبك تقعدي في الضلمة.

ضحكت بدلال وهي تقول:

- أنا أحبها.

فعقب وهو يجلس بالقرب منها على حذر:

- ده فرّق بيننا يا ماريا.

مالت وهمست:

- الموت بس هو اللي يفرق بيننا.

فنأي عنها قائلاً:

- حصل إيه؟ النهار ده الجمعة وجوزك في البيت... سبتي البيت ليه؟

تجهمت وردت...

- انساه... إنس أن لى راجل.
- إن كنت مش بتحبيه... اتجوزتيه ليه؟

فانتفضت قائلة بحسم:

- ما تسألش... وعلى العموم لو أنت متضايق... امشي.
- بطلي جنان أرجوكي... أنا عايز اطمئن بس.
- هو أخد الولاد للقداس يوم الجمعة وأنا قعدت وحدي في البيت... زهقت... قلت آجي لك.
- أهلاً وسهلاً.
- مش باين... أنا ماشية.

- يعني إيه ماشية؟ اعقلي.
- خليك أنت في عقلك وسيب لي جناني... سلام.

نهضت، وتوجهت لباب الشقة، وفتحته، وخرجت في لمح البرق حتى أنه شك في أنها كانت تزوره وغادرت... أحس بارتباك لم يعتده، فارتمى على أحد المقاعد، ووضع رأسه بين كفيه، ثم نهض من مكانه واتجه لمكتبه وفتح الكومبيوتر وكتب لها...

*****

" حبيبتي ماريا...

ليس من مبرر لعصبيتك لمجرد أني توجهت لك بسؤال لم يكن الغرض من وراءه أي شيء يمسك، فأنا أموت ولا أتسبب في تجريحك... فقط حاولت فتح موضوع يشكل وجعاً ضاغطاً على روحي، يجعلني غير قادر على الفهم أو التفسير.

أعرف أنك تحبيني مثل حبي لك، وأتفهم أن ظروفك أصعب من ظروفي لذلك سألتك بحسن نية، وأذكرك بكلمات قلتها أنت، وقبلتها أنا برحابة صدر، ولم أغضب؛ حين قلتِ لي أن حياتي أقصر من عمرك، وكررتها ضاحكة أكتر من مرة رغم معرفتك أن لا أحد يُحب فكرة موته لأني فسرتك بحسن نية.

ما دفعني للسؤال كلمة قلتها، وبقيت محفورة في قلبي وعقلي حين عاتبتني مرة ولقلتِ "لفظ ما يتقلش بين زوجين يحترموا بعض نهائي!" يعني يا بنت قلبي عقلك الباطن يعتبرني زوجك.

صدقيني وأقسم بشرفي وماريا ما كان قصدي من قريب أو بعيد مس مشاعرك أو الاقتراب من كبرياءك؛ لكن فجرت لحظة وجع سؤالاً، فسرتِه خطأً ففجر بركان غضب... أفعلي ما يعجبك فأنا أحبك، وسأبقى."

*****

استيقظت مبكرة في صباح جمعة مشمس من أيام الشتوية التي تدغدغ الشمس فيها جباه المدينة البحر، ففتحت نوافذ البيت لتسمح بالهواء والنور أن يلجا للبيت، وصنعت لنفسها كوباً من القهوة، توجهت به حيث التليفون الأرضي، واتصلت بابنتها ماريا، وسألتها إن كانت ستحضر قداس الجمعة، واتفقتا أن تتقابلا في الكاتدرائية المرقصية لأنها تود الحديث معها في أمر يشغل بالها.

تقابلتا في مواجهة ناصية شارع سيزوستريس أمام باب الكاتدرائية حيث جرى الطفلان لجدتهما وقبلاها بينما تبادلت الأم والابنة سلاماً دبلوماسياً يخلو من الحرارة، وولجا الباب الخارجي للمبنى، واتجهوا جميعاً للكنيسة، واتخذوا أماكنهم يستمعون للعظة، وحين انتهت، ذهبوا جميعاً للتناول.

سألت ماريا أمها أين تود الجلوس، فتركت لها حرية الاختيار، فاختارت أن يجلسوا في كافيتريا قريبة بها واجهة زجاجية وتقع بدور أول من مجمع تجاري تمكن الأطفال من مراقبة الشارع مما يترك لهما حرية الحوار بدون إزعاج.

دخلوا الكافتيريا، وطلبت الجدة للطفلين شراب الكاكاو الساخن وبعض الحلويات، وطلبت لنفسها قهوة تركية بينما طلبت ماريا قهوة سبرسو مزدوجة وتوجهت لأمها تسألها:

- خير؟ قلتي عايزاني.
- خير بالتأكيد.
- اللي هو؟
- مالك يا بت؟ شوكك واقف ليه؟
- فيه حد من أخواتي حصل له حاجة؟
- لا... الاتنين كويسين ومطلعين عيوني.
- أمال عايزاني في إيه؟ اللهم اجعله خير.

- مزعله جوزك ليه؟
- آاااااااااه... هو كلمك؟
- ردي عليّ... مزعلاه ليه؟
- أنا أزعله؟ ده يزعل الدنيا بحالها... ده مزعل الناسوت واللاهوت.
- ردي عليّ بكلام يتفهم وبلاش الاســـتهبال بتـاعـك ده... أحنـا مش جـداد على بعض... أنا حافظاكي يا بنت بطني.
- وأنا مذاكراكي وحافظاكي يا أمي... قال لك إيه الراجل اللي ما بيختشتيش ده؟
- أنك معصيه عليه.
- يعني إيه معصـيه؟ ما هو بياكل زي الحلوف، وبيقلع وسـخ ويلبس نضـيف، وبينام زي البغل وكل حاجاته مقضية... عايش كأنه في لوكاندة ومطعم ومش بيدفع مليم.
- ما تلفيش وتدوري... أنت فاهمة أنا با اتكلم على إيه.
- طبعاً فاهمة.
- طيب ليه بتعملي كده؟
- من غير ليه... مش أنت بتحبي عبد الوهاب؟
- بطلي لف ودوران... ليه مش تدي الراجل حقه؟
- حقه! كسر حقه... قرفت... قرفت أكون مبولة لخنزير... فهمتي؟
- بس ده حقه يا بنتي.
- آاااااه... بنتي... أنا با اقلق قوي من طقم الحنيه اللي بيبتدي ببنتي.
- فيه راجل تاني؟
- بتقولي إيه؟
- أنت سمعتيني كويس.

- لا تاني ولا تالت... با اقول لك قرفت... ولد... هات أختك علشـان نروح... وأنت إنسيني ينساكي الشر... أنسي إن لك بنت اسمها ماريا علشان أنت لما بتفتكريها بيكون لك غرض تاني خالص غير مصلحتها... سعيدة يا... أمي.

أمسكت بطفليها، وهبطت سلم الكافتيريا، تكاد لا ترى موقع قدميها وحين وصلت للشارع، أشارت لأول سيارة أجرة قابلتها، وعادت وطفليها للبيت تغلي غضباً، واتصلت بأحمد وحددت معه موعداً للقاء.

*****

وجدته جالساً في مقعد قريب من رمال الشاطئ، فأشارت للطفلين عليه فركضا نحوه ليستقبلهما ببسمة أشرق بها وجهه وهو يقبلهما، وينهض لاستقبالها... أشارت للطفلين أن يلعبا على رمال الشاطئ بالقرب منها، وجلست وطلبت من أحمد أن يطلب لها قهوة فأشار للنادل الذي طلبت منه حين حضر تربل سبرسو... نظر إليها أحمد وقد استشعر توترها فقال:

- خير يا ماريا؟ مالك حبيبتي؟
- عايزه منك خدمة.
- أنت تأمري... إيه هي الخدمة دي؟
- عايزاك تساعدني أسلم؟
- أساعدك إيه؟
- عايز استسلم... يعني ابقى مسلمة.
- أنت أكيد بتهزري.
- لا... مش بهزر... با اتكلم جد... وجد جداً كمان.
- أرجوكي تهدي وتفهميني بالراحة لأني مش قادر استوعب.
- أنت ما يهمكش أني أكون مسلمة؟
- سؤال مش في محله... وعلى العموم مسألة مسلمة أو لا دي تخصك أنت.

- شوف يا أحمد... أنا تعبت... تعبت قوي ومش قادرة استحمل.
- تعبتي من إيه تحديداً؟
- من الحلوف اللي أنا عايشه معاه... فهمت؟
- قصدك جوزك؟
- نعم... هو الزفت ده... عايزه أخلص منه وما حدش ها يساعدني غيرك.
- أنت عارفة كويس أني منحاز لك بس انحيازي ده المفروض يكون لصـــالحك مش ضدك... يعني لازم يحكمه العقل.
- يووووووه... يعني مش عايز تســاعدني... براحتك أنا ها احلها بطريقة تانية... أنا ها أغير ملتي... وشكراً يا دكتور... ولد... هات أختك ياللا... مشينا... سلام يا دكتور.

أمسكت بطفليها، وغادرت غاضبة، وتركته عاجزاً عن الكلام أو الحركة.

*****

أمضى أياماً عديدة متوتراً، تصاحبها ليلات أرق ممض، يفكر ماذا يفعل ولا يكاد يصــل لقرار... كان متأكداً من غضــبها منه، وشــعورها بأنه خذلها وهو الوحيد الذي فكرت أن تمتد لها يده تساعدها... مضت الأيام ثقيلة وهو يحاول أن يجد حلاً يساعدها دون أن تضطر لاتخاذ قرار يصنع من المشاكل أكثر مما يقدم من حلول... فجأة برق في ذهنه خاطر، فأمسك هاتفه الجوال وأرسل لها رسالة مختصرة: "أرجو الاتصال للأهمية القصوى."

جاءه رنين التليفون فوراً، فقال لها بلا مقدمات:

"حددي موعد... لا بد نتقابل... ضروري... عندي كلام غاية في الأهمية."

*****

التقته بوجه مكفهر وملامح غاضبة وقابلها بهدوء استفزها فقالت:

وسيادتك عايز تشوفني ليه؟

- تشربي إيه؟
- أنا مش جايه أشرب... أنا عايزه أعرف أنت عايز تشوفني ليه؟
- برضه تشربي إيه؟
- أشرب أي حاجه... أي زفت.

أشار للنادل أن يحضر لها عصير البرتقال، ثم التفت لها قائلاً وهو يرتشف من فنجان قهوته بهدوء:

- أنا عندي حل لمشاكلك كلها لو وافقتي عليه.
- يااااه... مشاكلي كلها مره واحدة؟
- لو مش عايزه تسـمعيني وفري كلامك وقولي وأنا أوصـلك بيتك وأريحك مني ومن كلامي اللي مش عاجبك.
- يااااه... ده أنت حامي قوي النهارده... لأ... ها اسمعك.
- شوفي مطلوب منك شيء محدد وبسيط وأنا ها اعمل الباقي.
- وإيه المطلوب مني؟
- تعملي شـهادة من الكلية بالمواد اللي درسـتيها في الماسـتر، ولو واجهتك أي صعوبات مع الإدارة قولي لي وأنا ها أسهلها لك.
- وها أعمل إيه بالشهادة دي؟ وها تحل مشاكلي كلها ازاي؟
- بعد ماتعملي الشـهادة ها تجيبيها لي، ها أعمل لها ترجمة مبدئية، وها تروحي بيها لمكتب ترجمة معتمد ها أقول لك عليه ها تروح لهم ها يعملوا لك ترجمة معتمدة بناءً على الترجمة المبدئية اللي ها اعملها... هما يعرفوني وبيني وبينهم تعاملات يعني مش ها يتعبوكي، والمصاريف كلها أنا ها احملها.
- وتعب القلب ده كله ليه؟
- مش أنت عايزه تخلصي من مشاكلك الاجتماعية؟
- أيوه... وقلت لك أنا ها اعمل ده ازاي.

- يا ماريا أنك تسلمي أو تغيري الملة ده تصرف سهل لكنه غير مسئول... نتايج التصرف ده ها تدفعي تمنها أنت وولادك وأهلك كلهم.
- إياكشي يولعوا.
- أنا ها أقدم لك حل سهل يحقق لك اللي أنت عايزاه ومفيش من وراه المشاكل الكبيرة اللي ها تحصل من تغيير الدين أو الملة.
- وإيه هو الحل ده؟
- ها أجيب لك منحة دراسية في السوربون تكملي الماستر وها أجيب لك فيزا أنت وولادك لفرنسا.
- فرنسا! بجد؟
- أيوه... وها أسافر معاكي وارتب لك أمورك علشان تستقري هناك.
- بس أنا ما عنديش فلوس للمسألة دي.
- ما تقلقيش... أنا ها اتحمل كل التكاليف لحد ما تستقر أمورك هناك.
- وأنت ذنبك إيه؟
- مش مسألة ذنب... وعلى العموم اعتبري الفلوس دي سلف وابقي رديها وقت ما تقدري.
- يعني أبدأ في إجراءات الشهادة المطلوبة بالمواد اللي درستها.
- بالظبط... وتجيبيها لي وأنا ها أعمل لها ترجمة مبدئية وابعتها لمكتب ترجمة معتمد، وأصدق لك الترجمة من الكلية وبعدين أنت تصدقيها من الخارجية وأنا ها اتكفل بإجراءات التصديق عليها من السفارة.
- أنا مش مصدقة.
- لا... صدقي... كمان لازم تعملي باسبور ليكي وللولاد وتجيبيه لي علشان آخد لك الفيزا عليه.
- وها تقدر تاخد فيزا لفرنسا؟

- أنا أستاذ مشارك في السوربون وعندي إقامة، والملحق الثقافي في سفارة فرنسا صديق قديم من أيام الدراسة.
- واااااااااو... يا عدرا مريم... بركاتك يا أم النور.
- قلتي إيه؟
- موافقة طبعاً... اللي بتقوله ده خيال ما كانش يخطر لي على بال، وبيحل لي كل مشاكلي كلها مرة واحدة، ويرجعني حرة.
- يعني ها تبدئي تعملي الشهادة أمتي؟
- من بكره الصبح.. ها انزل آخد استمارة الجواز، وها أطلع على الكلية أعمل كل اللي طلبته.
- جميل... اشربي البرتقال بقى علشان نمشي... على فكرة ما تجيبيش سيرة عن الموضوع ده لأي بني آدم لحد ما ننتهي من الإجراءات.
- كلام معقول... نفسي أبوسك.
- يا ريت يا ماريا... أنت بالنسبة لي وطن.
- أنا مصر؟
- أنت كل الأمصار اللي مفيش فيها غربة.

*****

انطلقت ماريا كرمح مصوب جيداً لهدفه، فبدأت في العمل على استخراج الشهادة الخاصة بالمواد التي أكملت دراستها في الماجستير في اليوم التالي للقائها بالدكتور أحمد، كما ذهبت لإدارة الجوازات، وحصلت على نموذج استخراج جواز سفر جديد، وذهبت لأستوديو تصوير شهير، وحصلت على الصور القياسية لجواز السفر.

بدت خلال حركتها الدءوب هذه سعيدة نشيطة حتى أن أمها وأخويها لاحظا هذا التغير الكبير في حالتها المزاجية مما أثار شكوك الأم، فبدأت في تقصي الأمر وبدأت

بالحديث مع زوج ماريا الذي أبدى امتعاضـــه من زوجته دون أن تجني الأم أية فائدة من الحديث معه.

استكشفت ما يعرفها ابنها الكبير الذي أثبت لها أنه لاه عن كل ما لا يخصه أو يحقق له فائدة، فلعنته بداخلها، ووجهت جهدها لابنها الأصـــغر، وقررت ألا تكون مباشـــرة معه، فأخذت تبحث عن أفعال ماريا ومعارفها المحيطين بها مســـتفيدة من العلاقة القوية بين هذا الابن الصغير وأخته ماريا.

لم تُنتج محاولات الأم مع ابنها الكثير من الفائدة؛ لكن كلامها معه لفت انتباهها للزائر المثير للريبة لماريا في المســتشــفى، وأخذ عقلها يأخذها ويردها في متاهات من الأفكار التي تجدها منطقية؛ لكن يعود عقلها لرفضها.

ظلت الأم قلقة متوترة عاجزة عن اتخاذ أي إجراء أو قرار تسيطر به على ابنتها وأفعالها التي تراها مريبة، وتواصـلت مع أب العماد لماريا الأب سـيداروس المتوحد لما تعرفه من علاقة ماريا به، وحبها له الذي لم يفدها بكلمة واحدة تهدئ من ثورة شـــكها وقلقها بســـبب ســـلوك ابنتها المتراوح بين عصـــيان الزوج من جهة، والبهجة والحركة الفائقة رغم المرض.

جاءها الجواب بلا مقدمات أو توقع حين جاءتها ماريا فرحة تخبرها أنها حصلت على منحة دراسية لإكمال الماجستير والدكتوراه في السوربون بفرنسا.

أصـابت الأم صـاعقة، وأشـارت قرون الاسـتشـعار في عقلها لهذا الزائر المريب أثناء مرض ماريا، فســألتها ومن أين أتت بهذه المنحة التي لا يحصـــل عليها إلا أقل القليل وبمشقة بالغة، وتأكدت ظنونها حين أخذت ماريا تسهب في شرح الجهود الجبارة التي بذلها صـديق أبيها وجارهم القديم الدكتور أحمد، وأحسـت بغريزتها أن هناك علاقة ما بين ماريا وهذا الجار القديم، وأن هذه العلاقة من العمق بحيث تهدد سـمعة الأسـرة، وتوحي بخراب بيت ماريا، فقررت أن تســتخدم كل ما لديها من قدرات وعلاقات، لكبح جماح هذه الابنة المارقة فاقدة العقل كما تراها.

*****

فوجئت ماريا ذات صـــباح وهي تســتعد للخروج بجرس بابها يرن، وحين فتحت الباب، فوجئت بأمها وأخويها والأب سيداروس المتوحد، وإذا بزوجها يخرج مرحباً بهما، ويعطي الطفلين مصروفهما ويصرفهما للذهاب للمدرسة.

تبين لماريا أن هناك اتفاقاً بين كل هؤلاء على شــيء ما... أكدت لها مشــاعرها أنه شيء لا يمت للبهجة بصلة، وأنه أمر دبر بليل، فقالت ببرود:

- تشربوا إيه؟

ابتســـم لها الأب ســـيداروس المتوحد وهو يقول لها أنهم جاءوا لأمر بســـيط سينجزونه بسرعة، لتمضـي هي وزوجها للعمل، وطلب منها الجلوس، وأخذ يمدح فيها وفي روحها المحبة التي تمثل جوهر العقيدة الإيمانية المســـيحية، وأن من هي مثلها يســتحيل أن تكون ســبباً في إيذاء أو إيلام أي إنســان قريباً كان أو غريباً... وأنها كأم مســيحية عليها واجبات أقرها الرب، وقبلت بها يوم وافقت أن تكون شــريكة زوجها في حياته برباط أحكم المسـيح وثاقه، وأن هذا الرباط لا يحق لبشـر حله إلا من يخرج عن العقيدة.

تســاءلت ماريا عن ســبب كلام الأب ســيداروس المتوحد، فقال لها أنها اتخذت قراراً سيهدم بيت من بيوت المسيح لو سافرت فرنسا كما علم من أمها.

نظرت ماريا لزوجها فوجدته صــامتاً يبتســم على غير عادته، ولمعت في عينيها الدموع وهي تســأل الأب ســيداروس المتوحد إن كان ســعيها لأن تكون إنســانة أفضــل وأكثر علماً يغضــب المسـيح؟ فردت الأم أن خراب البيوت هو ما لا يرضــاه الرب، ولا من يرعاهم من بشر عقلاء.

كاد عقل ماريا أن ينفجر، وهي تواجه فيضاناً من الضغوط سواء من أمها والأب سيداروس المتوحد وحتى أخويها اللذان انضما لما اعتبرته ماريا فرقة تدمير ما بقى من

حياتها... بكت... صرخت... ارتمت على الأرض بلا جدوى إلا من يد أخيها الصغير يقيمها، ويساعدها على الجلوس، ويمسح دموعها بمنديل ورقي.

استجمعت ماريا نفسها، وتشجعت لمواجهة هذا الجمع، وقالت في هدوء أن لاشيء سيمنعها عن السفر، وأن هذه حياتها ومستقبلها، وأن هذا السفر سيصنع للطفلين مستقبلاً يستحيل أن يحصلا عليه في مصر.

نهض زوجها في هدوء قائلاً:

- سافري... ألف سلامة... بس لوحدك... مفيش عيال.

صدمتها الكلمات، ونظرت لأمها التي قالت لها أن ذلك حقه... أخذتها رعشة، وبدأ جسدها في التشنج، وأغمى عليها، وبدأت نوبة مرضية جعلتهم يحملونها فوراً للمستشفى.

*****

هبط أحمد من سيارة صديقه الدكتور كمال عواض في ساحة الانتظار الذي ساعده في وضع حقيبته على أحد تروليات المطار، وسارا نحو المدخل وهو يمسح المكان بعينيه بحثاً عنها هي وطفليها حتى وقعت عيناه عليها محاطة بأمها وأخيها ماهر ممسكة بطفليه وما أن رأته حتى أفلتت ابنتها من يدها وهي تشير نحوه، فركضت الطفلة إليه ضاحكة وسلمت عليه وأعطته ورقة، وعادت راكضة لأمها... حين دقق النظر رأى الدموع معلقة في عيونها، وأشارت بيدها إشارة خفية مغزاها... اذهب.

توجه وصديقه لبوابة دخول المطار، وسأل صديقه عن أحد كبار رجال الأمن في المطار مخبراً أمين الشرطة أنه في انتظارهما، فاتصل الأمين وتلقى الأمر بالسماح لهما... كلف الأمين أحد المجندين لاصطحابهما للباشا الذي قابلهما هاشاً باشاً، واصطحبهما لصالة كبار الزوار، وأمر لهما بالضيافة الواجبة ،واعتذر عن البقاء معهما بسبب ظروف العمل على أن يتصل به كمال لو واجهتهما أية مشكلة في الإجراءات، وغادر.

فتح أحمد الورقة المطوية وأخذ في قراءتها، فلاحظ كمال شحوب وجهه لكنه لم يعلق وانتظر حتى انتهى من القراءة وسأله عما بها فأعطاه إياها صامتاً وجلس يحدق في اللا شيء... أخذ كمال يقرأ...

*****

حبيبي أحمد

أرجوك قبل كل شيء أن تعذر ارتباكي، وعدم اتساق أفكاري، فأنا أمر بحالة من التشويش، وعدم التركيز، لم أعرفها في حياتي من قبل.

تذكرني، ولا تنسى أني لم أحب سواك؛ لكن دوامة الحياة القاسية دارت بنا لتلقي بكل منا وحيداً بدلاً من أن تجمعنا... هو قدر شرس فرض على كل منا غربته واغترابه وحيداً في الوطن وخارجه، لنعيش دياسابورا لا تقل قسوة عن الجحيم.

أعرف أني خذلتك، لكني أريدك أن تعرف أني خذلت نفسي قبل أن أخذلك، ولم أخنك وإن خنت ذاتي.

ربما تسببت لك في بعض الخسارة؛ لكني خسرت كل شيء، ومعنى كل الأشياء – بما في ذلك ذاتي وروحي– حين وضعتني ظروفي بين حجري رحى اختيار لم أتعرض لأقسى منه، فأُجبرت أن اصطفي أبنائي بديلاً عني... وما أقساه من اختيار لأرواحك بدلاً من روحك.

لقد أصبح المستقبل إعادة لماضينا... صار صعباً... مستحيلاً.

لا أحد يريد لهذه العلاقة وجود وكلما حاولت إحيائها وجدت عدواً يحاربها... عدو أرسله القدر ليكون حائلاً بيننا بعد أن كنا معاً دون حاجز أو مانع نلتقي متى نشاء... نفعل ما نشاء دون خشية من أحد أو شيء... عالمنا حر كعالم طيور لا يتوقف تغريدها فصرنا أسرى أقفاص تسجنها عن سماءها... فتوقفنا عن الغناء والرقص، وصرنا سجناء واقع مرير سرق منا أجمل ما لدينا... لطالما كتبنا سوياً، فكنا حين نكتب نتحرر من واقعنا... نحلق في سماء المعاني لا يهم زمان ولا مكان... لا نحس بالساعات تمر ونحن روح واحد لا ينتهي عطائها... تكبر طموحاتنا وتشرئب أعناقنا ناظرة في لهفة نحو الغد.

قلبي المسافر بلا زاد ولا متاع... فليكن زادك حبي الذي لم ولن ينقطع، وليبقى حبك لي متاعك الذي يدفئ قلبك الطاهر... سامحني واغفر لي فأنت حبي الوحيد،

وخطيئتي التي لن أســـعى لغفرانها لأنها أطهر خطاياي وأنبلها... أذهب بعيداً في البياض، وحلق في سماوات صفاء، واذكرني بغفران فأنا لم أتركك؛ بل غادرت نفسي والحياة... ربما على أمل لقاء، لا تحجبه شـــروط ظالمة، تدعي الطهر وهي الأنجس، وترتدي ثوباً تظنه نقاء وهو الأكثر دنساً... ربما لو كان هناك عالم آخر يسمح لنا بهذا اللقاء... لقاء يدعني أضع رأسي على صدرك وأبكي بحرّيةٍ وأصارحك... كم تمنيتك في زمن المستحيل! أذهب بعيداً في البياض، وليصـــلِ قلبك لماريا التي أحبتك كما لم تحب، وغادرت روحها يوم أُجبرت أن تغادرك.

*****

اعتدل الدكتور كمال عواض في مقعده وتنفس بعمق وهو يغالب شعوراً عميقاً بالأسى، اختلط براحة استنكر شعوره بها ولم يستنكرها، فقد أرقته هذه العلاقة وتطوراتها التي حاول أن يخضعها لخبرته المهنية، ومفاهيمه الثقافية، وحبه لصديق عمره لكنه ظل رغم ذلك يشعر بقلق وتوتر لم يمكنه السيطرة عليهما... أصابته رعدة حين نظر لوجه صديقه فوجده محتقناً تشوبه زرقة، فمد يده له بكوب الماء لا إرادياً وهو يقول:

- أحمد... اشرب وركز معايا... أرجوك ركز.
- أنا كويس.
- كويس إيه بس... أنت شكلك داخل على مشكلة كبيرة قوي.
- مشكلة إيه بس؟ ما تضخمش الأمور.
- أنا برضه؟ قول لنفسك... أنت داخل على أزمة قلبية أو سكتة دماغية... الموضوع جد.
- قلت لك أنا كويس.
- لا... مش كويس... وبعدين أحمد ربك إن الأمور انتهت على كده.
- أنت اللي مجد سيدك وبلاش نتكلم في الموضوع.

- لا... ها اتكلم... أنا ساكت طول الوقت اللي فات احتراماً لمشاعرك لكن جه الوقت اللي اقول لك فيه إن ماريا أنقذتك.
- أرجوك يا كمال تسكت... أنا مش ناقص.
- لأ... ناقص تعرف إنك كنت رايح بحياتك في سكة اللي يروح ما يرجعش وإن ماريا انقذتك باختيارها ده... أيوه... أنقذتك.
- أبوس رجلك تسكت يا كمال.
- أنت سارقاك السكينة ومش فاهم إيه اللي كان ممكن يحصل لك... مرض ماريا صعب ومش أي حد يقدر يتعامل معاه... ماريا حررتك.
- أبوس رجلك تسكت.
- لأ مش ها اسكت... أنا عارف قد إيه أنت عنيد... بس المجتمع عندي أكتر منك... لا المسيحيين ها يقبلوا باللي أنت عايزه ولا المسلمين... غير كده فكر في أولادك... ميراث إيه اللي كنت هاتسيبه لهم لو عملت اللي في دماغك؟ ماريا أنقذتك... صدقني... سافر يا أحمد واستجمع نفسك وإرادتك وعيش بقية عمرك وأنت حر مش مقيد بسلاسل حب بدون مستقبل.
- أطلب لي سبرسو تربل.
- حاضر.

أشار كمال لنادل وطلب منه القهوة التي طلبها أحمد، وسرعان ما جاءت، فاحتساها أحمد فوراً غير مبال بسخونتها حين سمعا النداء على الطائرة المتجهة لمطار شارل ديجول بباريس، ففتح أحمد حقيبة يده وأخرج بضع أوراق أعطاها لكمال قائلاً:

- ده مقال كنت ناوي أبعته لصاحبنا بهاء في الأهرام ينشره... ممكن توصله له؟ أو ابعته له أنا بالبريد الإلكتروني؟
- هاته... أنا ها ابعته.
- وأنا ها ابعته لك نسخة بالبريد الإلكتروني لو ما قدرتش تنزل القاهرة بسرعة.

- زي ما تحب.
- اقراه وقل لي رأيك... أنت عارف إن رأيك بيهمني.
- حاضر.

جاء أمين للشرطة يصطحبهما لاستكمال إجراءات السفر، وسار كمال مع صديقه حتى باب الممر المؤدي صعود الطائرة، التفت إليه أحمد ومد يده في جيب الجاكت الداخلي، وأخرج جواز سفر وأعطاه لكمال قائلاً:

- ده جواز سفر ماريا وأولادها... عليه فيزا لفرنسا... أرجوك ترجعه لها.
- حاضر يا أحمد... بس أرجوك خد بالك من نفسك.

مضى قدماً وهو ينظر للخلف مودعاً صديق عمره الذي أخذ في النظر إليه يسير متهالكاً، فدمعت عيناه غصباً عنه، وأحس بغصة في حلقه وهو يختفي عن ناظريه، فاستدار ليعود بمعية أمين الشرطة، ذاهباً لشكر صديقه رجل الأمن المهم، وغادر مبنى المطار لموقف السيارات، وقاد سيارته في طريق العودة للمدينة وهو يرى الطريق بالكاد من بين غمامة دموع معلقة بين الحزن في قلبه، والفقد في عقله، شاعراً أن جزءاً منه... ضاع.

أحس كمال بإجهاد يجتاحه، فمضى إلى الاستراحة وطلب قهوة مزدوجة بلا سكر، وفتح الأوراق التي أعطاها إياه صديقه الذي مضى، وأخذ في القراءة حتى أنه لم يشعر بالنادل يضع القهوة على طاولته.

الخلاص من الأب الفرويدي

بقلم: د. أحمد ...

برولوج

وللحرية الحمراء بابٌ ∴ بكل يد مُضرجة يدق

الوليمة الطوطمية

حَكَمَ أبٌ قويٌ الجماعة البدائية، واستأثر بكل النساء، وفرض التحريم الجنسي الصارم على ذكور الجماعة كلهم بما فيهم أبنائه ونتيجة للقمع وكبت ميول الأبناء الجنسية، ثار الأبناء على أبيهم وقتلوه، فأحسوا بالندم، وحتى يحافظوا على الأب في داخلهم التهموه، ثم دبت الفوضى ونشب الصراع بينهم على تركته، فاقتتل الأخوة في غياب سلطة الأب وهيبته وانهيار النظام الأبوي.

يُفكك فرويد هذه الأسطورة سيكولوجياً، فيرى أن الأبناء ناصبوا الأب المتسلط الكراهية والعداء نتيجة الحرمان الجنسي الذي فرضه عليهم، ودانوا له في ذات الوقت بالحب والولاء والإعجاب لأنه النموذج والقدوة التي يطمحون ليصبحوا مثلها، لذلك شعروا بالندم والألم عندما أنهوا وجوده نهاية مأساوية بقتله، فمارسوا طقوساً طوطمية تكريماً له ليكفروا عن إحساسهم بالإثم العظيم، وصاغوا نظاماً مقدساً، حرموا بموجبه على أنفسهم ما كان الأب حرّمه عليهم، فظهر التحريم، والمقدس، والقانون، وتأسست العادات والتقاليد والأعراف لتأصيل كل ذلك، وعرف البشر القيم والنظم الأخلاقية، واختاروا طوطماً (حيوان أو طير) يرمز لروح الأب، قدسوه لدرجة التحريم، فهو تابو القبيلة المقدس الذي لا يجوز قتله، أو صيده، أو أكله؛ مع بعض الاستثناءات تمارس فيها العشيرة طقوساً إباحية، يستباح فيها الطوطم المقدّس في مناسبات احتفالية، حيث يُنتهك ويؤكل لحمه المحرم في سياق وظيفي تفرضه طبيعة الحياة وشروطها القاسية.

ويحاول فرويد عبر التحليل العلمي استكشاف الطاقة الرمزية في الخطيئة الأصلية (القتل) والوليمة الطوطمية (أكل الأب) المتحولة إلى هاجس وجودي يقض مضاجع الابن في سعيه للتحرر من التبعات الأخلاقية لهذه الخطيئة والتكفير عنها؛ حيث يرى أن قتل الأب وأكله أسس لحالة تناقض وجداني؛ حين أحس الأبناء القتلة بالذنب الذي تحول لعذاب ضمير، ثم لطقوس اتخذت مع الزمن طابعاً مقدساً، وتحولت إلى أنظمة أخلاقية تحوّل فيها الطوطم الأبوي إلى مقدس ديني، حتى أسس هذا المقدس لاحقاً للعرف، والقانون، والأنا الأعلى الأخلاقي في المجتمع.

ماذا نجد من أوجه التشابه بين الجماعة البدائية، وثورة 25 يناير؟

يمثل النظام السياسي المصري القديم المعادل الموضوعي للأب الذي استأثر بالسلطة والثروة، ومارس القمع والتحريم لمنع كل الجماعة من الاستمتاع بحقوقهم الطبيعية في المشاركة في الثروة والسلطة، والذي صنع (طوطم الرئيس) طوال عقود طويلة، ليشعر شعبه بعقدة الذنب تجاه التعرض له أو إيذائه، ويصبح الشعب في المقابل (وبالذات الأجيال الشابة) معادلاً موضوعياً للابن الراغب في التحرر من السلطة الأبوية، والحصول على حقوقه الطبيعية في الثروة والسلطة، ومن ثم تكون الثورة هي قتل الأب، وتساوي نفسياً في العقل الجمعي للثوار (الخطيئة الأصلية) التي تستلزم طقوساً موازية لها للتكفير عنها.

وظف فرويد دلالات الأساطير الرمزية لتفسير نشأة النظام الأخلاقي، فاستلهم آليات التَشَكُل التاريخي للأخلاق والحضارة الإنسانية من أسطورة (قتل الأب وأكله) بطبيعتها الأنثروبولوجية، وأسطورة أوديب بطبيعتها السيكولوجية، ويستخدم أسطورة (الوليمة الطوطمية/ مقتل الأب والتهامه) لتفسير منشأ الأخلاق الإنسانية بمضامينها الاجتماعية والتاريخية، ويُفسر من خلال (أسطورة أوديب/مقتل الأب ونكاح المحارم) نشأة (الأنا الأعلى/ الضمير) والقيم الأخلاقية سيكولوجياً، ويستفيد من تجانس الدلالات

الرمزية للأسطورتين للخطيئة الأولى (قتل الأب) ولعنة (نكاح المحارم) في تفسير ولادة القيم، ونشـــأة الأخلاق، والضـــمير الأخلاقي، ويرى أن الأبناء قرروا في التراجيديات البدائية التنازل عن إشباع ميولهم الغريزية لصالح النظام الاجتماعي، لتشكيل مجتمع متحضـر أسـاسـه النظام والعدالة والقانون والقيم الأخلاقية؛ لأن الحضـارة تقوم على مبادئ الإيثار وإنكار الذات وتنظيم الإشباع الغريزي تنظيماً أخلاقياً في أطر فلسفية، تُراعي مبادئ العدالة والحق والخير والجمال.

فهل تحقق ذلك في ثورة 25 يناير؟

على الأقل حتى تاريخ كتابة هذه السطور؟

لقد تحقق نموذج معادل لـــ(قتل الأب) بإسقاط الرئيس بفعل الثورة، لكن تكونت عقدة (الخطيئة الأصلية) لدى قطاع مهم من الشعب، فطفت على السطح أفكار ندم، تنحو نحو التنازل عن إشباع الميول الطبيعية للعدل والحرية لصالح النظام السياسي الذي لم يتبدل منه سوى رأسه فقط.

إن شعباً بحجم الشعب المصري من الطبيعي أن يضم في أعطافه العديد من التوجهات التي لابد وأن يتماهى بعضـــها مع نظام الرئيس الســـابق من مطلق وحدة المصـــالح والأهداف، فإذا ميز النظام الســـابق الفســـاد، فلابد من مســـتفيدين من هذا الفساد، ومصلحتهم الدفاع عن هذا الفساد ورموزه ونظامه الذي مازال حياً عفياً، يساهم في تنمية الشـعور بالإثم، مُسـتخدماً تراثاً من الأعراف والتقاليد الاجتماعية والعقائدية، تبجل الجذور لدرجة تقترب من التقديس.

(هل يمكن رصد عدد أضرحة الأولياء في مصر؟) فماذا نفعل؟

لقد عرفت كافة الثورات في تاريخ البشرية (الثورة المضادة) وتعمل (الآن) الثورة المضادة في مصر على قدم وساق ومنذ اللحظة الأولى لإجهاض نتائج تمرد الشعب على القمع والاستبداد، وليست سخرية بعض عناصر النظام ورموزه من المتظاهرين، وهجوم قطاع لا يستهان به من الإعلاميين، والفنانين، والرياضيين على الثورة إلا تعبير

عن مصـــالح مرتبطة بالنظام، ومناقضـــة للثورة في أبســط تجلياتها وهي البحث عن العدل، والحرية، والعدالة الاجتماعية، ومحاربة الفساد لأنهم بكل بساطة مستفيدين من هذا النظام بكل تجلياته.

ويلعب النظـام والعـديد من الرموز الرجعية على هـذا الميراث الأنثروبولوجي بتجلياته العُرفية المصـــرية، وميراث العادات والتقاليد في تبجيل وتكريم الكبير لتكوين الشـعور بإثم الخطيئة الأصـلية لدى الجموع، وتنمية الشـعور بهذا الجرم عند الشـعب عامة والثوار على وجه الخصوص.

لذلك يجب أن تتحرر قوى المجتمع المصـري من عقدة الأب الفرويدي، فقد دفعت ثمن الثورة كاملاً من دم الشـهداء الذين قتلهم نظام فاقد للأهلية بالمئات في دم بارد وبلا أي شعور إنساني.

ليســوا الثوار هم أصـحاب الخطيئة الأصـلية، فلم يكن النظام أباً للشـعب كما أوحى، ولم يقتل الابن أباه، ولكن هناك شـــعب قرر أن يتحرر من ظلم حكامه، ونجح في التخلص من رأس الحكم؛ لكن مازال الجسـد مثل (ميدوزا) الإغريقية يتحرك بالعديد من الرؤوس الأخرى.

لم يكن الرئيس يوماً الأب، ولا يصـلح نموذجاً، وليس له على الشعب الذي أذله ثلاثين عاماً أي دين، بل يداينه الشـــعب بأكثر من الكثير على المســـتويات المادية والمعنوية، وإذا ثار عليه الشـعب، فلم يثر على الأب؛ بل على الحاكم الظالم الفاسـد، وليس الشـــعب أبناءً قتلة، بل هو الأمة التي ظُلمت، وقُمعت، واســتُلبت منها كرامتها وثروات الوطن، وحقها في العيش الكريم.

إن الشعب هو البطل المطالب بقطع كل رؤوس الوحش، حتى يصل إلى جائزته الكبرى... الحرية، والعدل، والمساواة... في مجتمع خال من الحكم الأبوي، ويجب عليه أن يعي جيداً أنه شـــعب ثائر عظيم، وألا يشـــعر بالذنب تجاه جيل الآباء (وأنا واحد منهم) لأنه لم يرتكب خطيئة؛ بل بحث عن حريته.

يجب أن يُدرك الشعب المصري وثواره على وجه التحديد أن النضال قد بدأ لكن السير طويل، ومطلوب جهد وافر لاسترداد كافة الحقوق المعنوية والمادية التي استلبها أعداء الشعب وخصومه منه؛ حيث لا يجب أن يحصل كل من أساء للأمة المصرية على أي جائزة أو عفو، أو أن يتمكن من الإفلات بغنيمة، ليس من منطلق الثأر؛ بل بحثاً عن العدالة والحق، وصُنع نموذج للمحاسبة، يَجعَل كل من يفكر في خيانة هذا الشعب، يُفكر عشرات المرات قبل أن يجرؤ على فعل الخيانة.

أيها المصريون... تخلصوا من الأب الفرويدي، ولا تشعروا بالذنب.

*****

أنهى استعدادات الصعود إلى الطائرة، وركب الحافلة مع غيره من المسافرين، وصعد للطائرة واخذ مكانه بين الركاب، وأقلعت الطائرة، وسرعان ما اختطفه الوسن حتى أنه لم يشعر بالمضيفة تضع غطاءً عليه يقيه البرد.

عادت سيرة حياته تتهادى في مخيلته بلا ترتيب ولا نظام، فعاش عذابات كان قد نسيها، وطاردته خيالات طفولته، والتفت حوله أشباح العذابات التي ذاقها متجسدة في هيئة بشر عاني وجودهم في حياته.

أرقه سؤال عبثي يتقافز بين تلك الأوهام والذكريات...

هل وجهته مطار أورلي أم مطار شارل ديجول؟

حاول أن يعثر على إجابة، أو يتذكر، وكلما اقترب من الإجابة، قفز أمامه شيطان من شياطين تاريخه يضحك في جنون، ويقول له:

"وهل عثرت طوال حياتك على أية إجابات أيها الأحمق؟ ألم تكن حياتك كلها سلسلة من الأسئلة مستحيلة الإجابات وبلا نهايات... كنت دوماً أغبى من فاوست الذي قايض الشيطان على شيء؛ بينما قامرت بعمرك مقابل اللا شيء... أظننت أنك أذكى من الحياة أيها النزق الأبله؟ الحياة هي أمك التي جاءت بك إليها وهي التي ستضم عظامك التي لن يوقرها أحد."

حاول جاهداً، وبذل غاية جهده أن يتخلص من الخيالات والأحلام والكوابيس؛ لكنه فشل كما خُدع طوال حياته في ظن الهرب من الوجع والأسى وعدم التحقق، فاستسلم للخيالات القاتلة بلا إرادة، وأخرج ورقة وقلماً وكتب:

*****

السالكين

بقلم: أحمد

طمعاً في رؤية وجه معبوده، أمضى عمره سالكاً بين السالكين... يتوجه أينما ولوا وجوههم شطره... تارة للمشرق، وشطر المغرب فينة أخرى... حين اقتربت الرحلة من نهايتها، واقترب مما ظنه مشكاة أو أدنى... وظن أن سيشاهد ويرى... تكشف له معبوده، فكاد أن يخر صعقاً، وهرب.

*****

وصلت الطائرة المطار، وهبط جميع الركاب إلا هو... توجهت مضيفة نحوه توقظه، وتخطره بوصول الطائرة محطتها الأخيرة... ولم يستيقظ.

عن الكاتب

- **التحصيل العلمي:**

1. دبلوم التشخيص والعلاج بالأشعة والنظائر المشعة.
2. المعهد العالي للتذوق والنقد الفني– أكاديمية الفنون المصـــرية 1974 م الدفعة الثانية.

- **ملخص الإنتاج الفني والفكري والثقافي:**

1. عضو سابق بفرقة الإسكندرية المسرحية.
2. عضو سابق بفرقة مسرح الجيب السكندري.
3. عضو مؤسس بفرقة الإسكندرية القومية لمسرح الطفل.
4. مخرج بجهاز التربية المسرحية بوزارة التربية والتعليم المصرية.
5. قصص قصيرة وقصيرة جداً ومسرحيات للأطفال وللكبار.
6. مقالات في نقد التشـكيل، والنقد الأدبي والفني منشـورة في الدوريات المصـرية والعربية.
7. عضو مختبر السرد بمكتبة الإسكندرية.
8. مؤلف كتاب (تقنين أنشطة المسرح المدرسي) منشور.
9. مؤلف كتاب (الدراما والفرجة المسرحية) منشور.
10. مؤلف كتاب (الخطاب بين النص والإلقاء) منشور.
11. مؤلف كتاب (فنون العصر الحجري) منشور.
12. مؤلف كتاب (النصب بوسائل الإعلام) منشور.
13. مؤلف كتاب (الإعلام الأمني للأطفال) منشور.
14. مؤلف مسـرحيتي الأطفال المصـورة (دفاع الطبيعة ولك الوحوش) نشـر الهيئة العامة للكتاب.
15. مؤلف مسرحية الأطفال (مصر للمصريين) منشورات اتحاد الكتاب.
16. مؤلف الفرجة المسرحية (حلم الخير) عن قناة السويس (غير منشور).
17. مؤلف الفرجة المسرحية (غاندي ملاك التسامح) (غير منشور).
18. مؤلف المسرحية الكوميدية (عفاريت نص الليل) (غير منشور).
19. مؤلف مونودراما مسرحية (الاهطل) فرجة مسرحية (غير منشور).
20. مؤلف مونودراما مسـرحية (أم العريف – بنت السـتينات) فرجة مسـرحية (غير منشور).
21. الجائزة الأولى لوزارة الثقافة المصـرية عام 1983 م عن مسـرحية الأطفال (حكاية الوطواط) أنتجها مسرح الطفل السكندري بقصر ثقافة الحرية بالإسكندرية من إخراج ناجي أحمد ناجي.

22. حائز على الجائزة الأولي لوزارة الثقافة المصـــرية عام 1986 م عن مســـرحية الأطفال (حكاية الشاطر إسلام وكنز الكلام) أنتجها مسرح الطفل النموذجي بقصر ثقافة الجيزة إخراج سامي عبد النبي.
23. الجائزة الأولى في ملتقى أبها الثقافي – السـعودية 1995 م عن مسـرحية (نبض الرمال).
24. جائزة أفضـــل نص في مهرجان أصـــيلة الدولي لمســـرح الأطفال بالمغرب عام 2009 م عن مسرحية (الوطواط الخراط).
25. حائز على جائزة أفضـل نص وأفضـل مؤلف في مهرجان المونو دراما بالرياض – السعودية 2010 م عن مسرحية (الخبل).
26. حائز على المركز الأول في المســـابقة الأدبية لإدارة الشـــئون المعنوية بوزارة الدفاع في المســـابقة الأدبية الثالثة للقوات المســـلحة أكتوبر 2015 م عن القصـــة القصيرة (الفينيق).
27. المركز الأول في مســـابقة المجلس الأعلى للثقافة (الوطن في عيون المبدعين) يناير 2016 م عن مسرحية حلم الخير.
28. مُحاضـر باجتماع مجلس وزراء الداخلية العرب بتونس عام 2011 م بدراسـة عن (الاحتيال باستخدام وسائل الإعلام، وسبل مواجهته).
29. مُحاضـر بجامعة نايف للعلوم الأمنية بالرياض - المملكة العربية السـعودية - عام 2011 م بدراسة عن (التوعية الأمنية للأطفال من خلال وسائل الإعلام الأمني).
30. عضو عامل باتحاد كتاب مصر.
31. مدير التحرير المؤسس لمجلة رؤى الثقافية (السعودية).
32. مدير تحرير مجلة فرع الجمعية السعودية للثقافة والفنون بحائل.
33. عضو جمعية المسرحيين السعوديين.
34. عضو بمختبر السرد بمكتبة الإسكندرية.
35. العمل بالسـعودية كمثقف صـحي، ومدير تحرير النشـرة الدورية للثقافة الصـحية (طهوراً) ومسـئول الوسـائل التعليمية بإدارة التوعية الصـحية، وإعداد وتصـميم المطبوعات والملصـقات للتوعية الصـحية، والإشـراف على الطباعة والتنفيذ، وعضـو المكتب الفني بإدارة الرعاية الصـحية الأولية، ومسـئول التدريب بإدارة الرعاية الصـحية الأولية، ومسـاعد باحث عدد من البرامج والدراسـات والبحوث الميدانية؛ إضافة لحضور العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية.

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر
دار نشر – دراسات – استشارات – دورات تدريبيّة
الإسكندرية، مصر
44 شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية
موبايل: 0020103003691
هاتف: 034830903
بريد إلكتروني: levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني: www.levantcenter.net
مركز ليفانت أحد فاعليات شركة ليفانت لتنمية الموارد البشريّة، ش. د. م. م. وفق قانون 159 لسنة 1981م ولائحته، رقم: س ض: 545/584/507،
س ت: 9882.
يقيم المركز دورات ثقافية وتعليمية متنوّعة وورشات عمل وندوات ومحاضرات...، ويستثمر في تطوير الموارد البشريّة وتنميتها، ومن ثمّ فهو يهتمّ بإعداد باحثين في مجال الدراسات الثقافيّة تطبيقًا على علم الكوديكولوجيا وتحقيق النصوص التراثيّة وعلوم العربيّة وآدابها وتجديد الفكر الدينيّ، كما يهتمّ بأصحاب المواهب في الكتابة السرديّة والمسرح والسينما والسيناريو، وينشر أعمالهم ورقيًّا وإلكترونيًّا.
وتدير إدارة المركز موقعًا إلكترونيًّا شاملاً نشاطاتها كلّها، علاوة على إتاحته تحميل الكتب والمقالات والفيديوهات المختلفة.
وينشر المركز المقالات والكتب ورقيًا وإلكترونيًّا وفق عقد مع أيّة مؤسسة أو مؤلّف إفراديًّا.
رقم الإيداع: 25922 / 2019م
الترقيم الدولي: 1 – 82 – 6651 – 977 – 97